مطبوعات مكتبة مصر

دَائِرَةُ اللّهَبِ

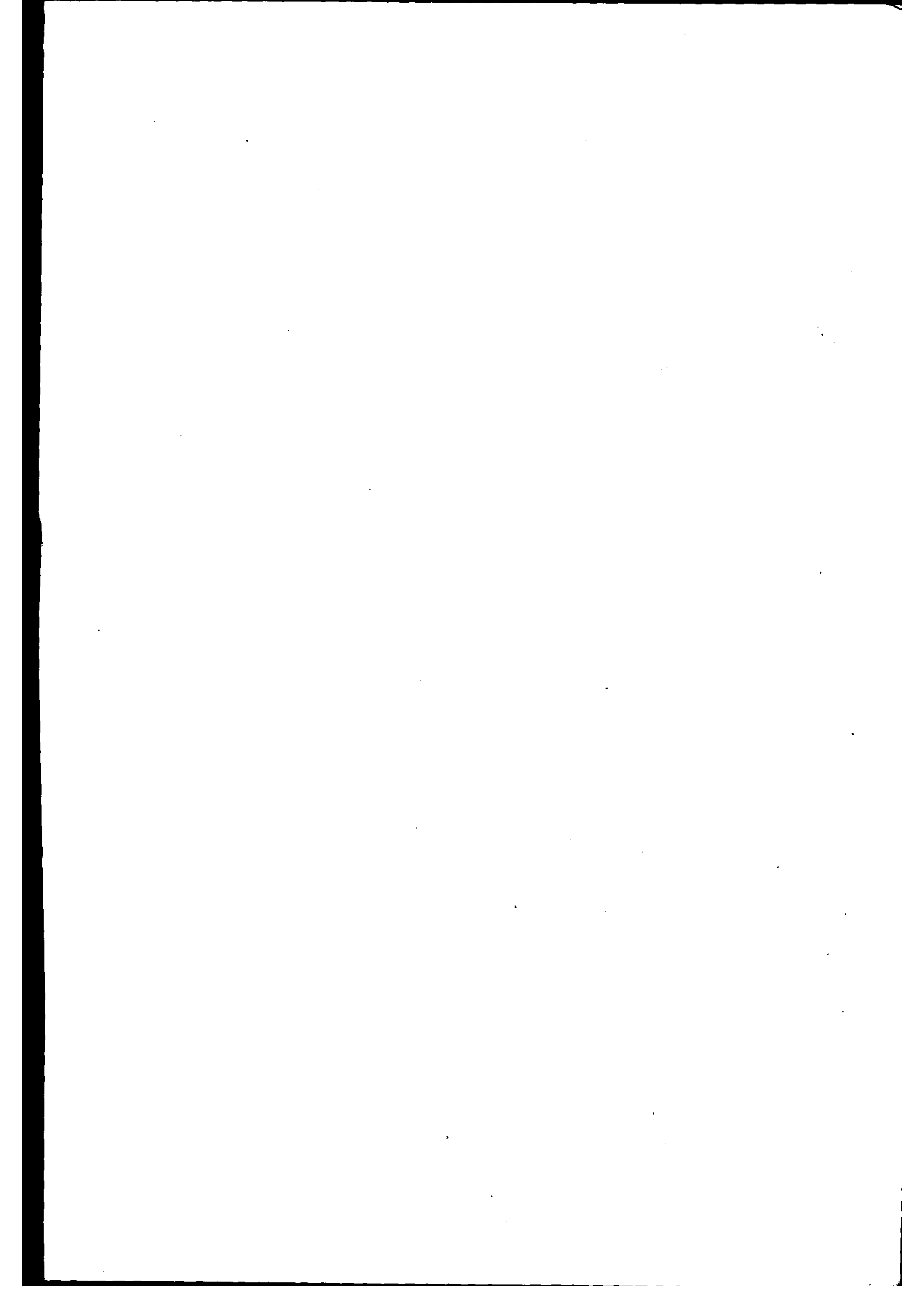
طه وادى

الطبيعة الثانية

١٩٩١

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



الأطـــلال

مشيتُ وشاطئ البحر الكبير إلى حيث تجرنى قدماى . متعة كبيرة أن تسير بلا هدف . قطعت مائتى كيلومتر سعيا إلى رأس البر ، بعيدا عن زحمة العاصمة .. وعن كل من أعرف . قضيت ليلة سعيدة . لا أدرى كم نمت ، يكفى أنى نمت حتى شبعت . فى النهار أكلت .. وقرأت الجرائد .. كل الجرائد ، حتى صفحة الوفيات قرأتها ، كنت حريصا على قراءة كل الأسماء والترحم على الموتى الذين لا أعرفهم . الساعة تجاوزت العاشرة بقليل . الأمواج يشدنى إلى حيث يلتقى البحر بالأفق المجهول . أحيانا أختلس نظرة إلى المصطافين ليلا ، لكن ما ألبث أن أعود إلى صوت الأمواج وحركتها المزبدة . امتلأت رئتاى بهواء نقىّ ، يجمع بين الطهارة والبكارة .. البكارة التى نفتقدها دائما فى المدن الحجرية .

انتبهت فجأة إلى ظل يقتفى أثرى منذ مدة ليست بالقليلة ، أحسستُ قدراً من الضيق والقلق . فى البدء ظننت الأمر مصادفة .. فالشاطئ مكان عام .. لكل المصطافين حق السير فيه . غير أن ظل

المقتفى ما زال يطاردنى . بدرتْ منى التفاتة سريعة ، فإذا رجل على مشارف الخمسين يصحب طفلـة صغيرة . حمِدت الله — فى سّرى — إذْ لا يوجد مخبر يسير هكـذا.أسرعت السير أمـلاً فى الهروب ، فقد جئت هنا من أجل الراحة والوحدة . لكن نظرتى إلى الرجل الغريب شجعته على التمادى . وضع يده على كتفى متسائلاً :

— أستاذ صبرى .. أليس كذلك ؟

أسقط فى يدى حين نادانى الرجل بالاسم ، الذى سجله لى أبى فى شهادة الميلاد . وقفتُ مشدوهاً أتأمله ، ولم أرد .

— أنا حسين .. حسين سعودى ألا تذكرنى ؟

صافحته ببرود متمتماً : لا أعتقد .

— يا رجل .. لقد كنّا زملاء فى الجامعة .. فى كلية الآداب يا أستاذ صبرى .

ازددتُ حيرة وغيظا ، من أين جاء إلّى هذا الحسين سعودى ؟ حتى لو كنا زملاء ذات يوم فما الذى يربطنى به الآن حتى يعكّر صفو وحدتى .. ويفسد صورة ، أتخيلها جميلة للبحر والليل ؟ . أخذت أتأمله وأنا أجهله . لم استطع تذكر اسمه أو هيئته ، لقد مضى على ذلك الزمان البعيد ربع قرن .. ربع قرن كامل . !!

ـــ إذا كنت قد نستنى ، فيستحيل أن تنسى صديقك الأستاذ عاطف أبو المجد . !!

انتفضت كالملدوع ، وأنا أتأمل وجهه الطيّب ، وشعرات بيضاء بدأت تشتعل فى فوديْه : نعم أعرفه .. أعرفه جيدا ، لكن هل تعرفه أنت .. وتعرف أين هو الآن ؟! .

لم يكن عاطف زميلاً فقط ، بل صديقاً .. لا .. لا .. كان أخا حبيبا . لكن ظروف الحياة القاسية فرّقت بيننا منذ تخرجنا فى جامعة القاهرة . بدأت أفيق .. وكم تمنيت ألا .. ! اهتزت رأسى كأنما صدمها جدار صخرى . غابت عن ناظرى صورة البحر .. والليل .. والأرض .. والسماء.تخيلتُ فى الرجل الغريب هيئة صديقى القديم ، الذى تاه فى أرشيف وزارة التربية والتعليم منذ ربع قرن . عاطف .. كان ولداً رجلا .. دائما جادا .. همومهُ أكبر من سنه ومن طاقته . فى المرحلة الثانوية كان لا يفتأ يسخر منا ، حين نذهب بعد الخروج لنعاكس بنات مدرسة المعلمات ـــ لأن الحديث معهن أسهل من الحديث مع بنات الثانوى ـــ ويعلّق بحدة :

ـــ هذا عبث .. لعب عيال .. !!

فيرد زميل مرح اسمه .. اسمه آه .. تذكرت .. محمود .. محمود

يا قوت : عيال .. عيال .. المهم أن نحب يا معقد .

استوقف الرجل تيار الذكريات قائلا : أنا وعاطف نعمل فى مدرسة واحدة . عندما نلتقى لا نمل من الحديث عن العصر الذهبى ، عصر الجامعة . عاطف دائما يتحدث عنك ، ولا يخفى إعجابه بك !!

يالسخرية القدر .. لقد هربتُ من زوجتى .. وأطفالى ، حتى أكون وحدى ، بحثاً عن الراحة والهدوء .. !! احترت برهة — لا أعرف مداها — ماذا أفعل .. ؟ لا .. لن أدع الفرصة تضيع .. !! الإنسان مجموعة ذكريات .. وذكريات عاطف يستحيل أن تنسى .. من ينسى صديق الصبا والشباب .. الحب والكفاح .. أيام الحوار والجدل .. ليالى الطعمية والكشرى .. وأغنيات عبد الوهاب وأم كلثوم .. كناً صغاراً ، لكن أحلامنا كانت كبيرة .. !!

— هل يمكن أن أراه الآن ؟

لا أدرى كيف نطقتُ سريعا بهذه الجملة . تناسيت كل شيء إلا رغبة ملحّة فى لقاء صديق عزيز ، لم أره منذ خمسة وعشرين عاما . زمن عجيب يجعلنا ننسى أشياء كثيرة ، بل يجعلنا أحيانا ننسى

أنفسنا .. !!

اعتذر لوجود الطفلة .. وتأخر الوقت . تواعدنا على اللقاء ضحى الغدّ ، كى نذهب إلى المدينة المجاورة ، حيث يعمل عاطف ويقيم .

ودعته وأنا أستبطىء اللحظات الباقية ، وتداعتْ إلى فكرى ذكريات الماضى . لم أعد قادراً على السير . عدت إلى البيت وخواطر قلقة بين الماضى والحاضر تعبث فى رأسى . طال الليل .. ولم أستطع النوم رغم حاجتى إليه .. !!

فى الطريق إلى عاطف ركبت أنا وحسين سعودى سيارة أجرة . تشاغلت عن الزحام وثرثرة الركاب بمشاهدة الطبيعة العذراء .. الأرض بساط أخضر .. الشجر والنخيل يزيدان المنظر جمالاً وكمالاً . شدّنى منظر النيل وهو ينساب فى هدوء ناحية البحر الأبيض . حاولت أن أتخيل صورة لعاطف على صفحة الماء . شاب وسيم ، أشقر الوجه ، أزرق العينين ، كستنائىّ الشْعر ، صلب العود ، رياضى التكوين . كنت دائما أغبطه على وسامته ، وأقول معابثاً : من أين لولد شرقاوى مثلك كل هذا الجمال .. ؟ .

فيرد جاداً : الإنسان بالمضمون لا بالشكل .

أخذت أستعيد ملامح الصديق .. وذكرياته . الماضى دائما يشدنا إلى الذكريات الحلوة .. وإلى البكارة والصفاء . حين نتأمل الماضى أحيانا نفزع ونفجع ، لأن المسافة بعيدة بين الطهر والدنس ... !! تذكرت عاطفا والسنين الخوالى .. لكن شيئا مجهولاً جعلنى أوقن أن أمثال عاطف لا يمكن أن يستسلموا بسهولة لعواصف الأيام وزوابع الليالى ..! أيقظنى الصديق المشترك من شطحاتى .. أخذنا نسير فى شوارع مدينة دمياط .

الغريب حين يذهب إلى مكان ، يكتشف أشياء ، كأنه يراها أول مرة . الحركة صاخبة والزحام كثيف ، كأنما الأرض تنبت رجالاً ونساء وأطفالا . تداخل زحام البشر والسيارات وعربات الحنطور والكارو .. زحام .. زحام . شغلنى الزحام عن حديث حسين ، الذى أخذ يثرثر عن كثرة العيال وغلاء الأسعار ، وتعب مهنة التدريس ، وكساد سوق الدروس الخصوصية . أدركت بعد أن طالت الثرثرة وضاع من قدمى الطريق ، أنه يريد بقدر من الخبث الساذج ألاّ يجعلنى أشعر بطول المسافة . نظرت إليه فى حيرة فقال على الفور :

ـــ اطمئن .. الأستاذ عاطف رجل بيتى ، سوف نجده بأذن

الله .

تركنا المدينة — فى هذا اليوم الحار من أيام يوليو سنة ١٩٨٥ — وأخذنا نجوس خلال الضواحى الشعبية ، ثمة حارات شيطانية تتعرج دون نظام ، وتتفرع فى فوضى شاملة . اختلطت المساكن بالأرض الزراعية . بدت ترعة ذات رائحة منفّرة ، اختلطت فيها مياه النيل بنفايات المجارى . ساورنى شك . إن ما أعرفه عن عاطف يجعلنى أشك فى أنه يمكن أن يسكن فى مثل هذا الحى .. !!

— أنا وعاطف كنا زميلين فى قسم التاريخ ، أما أنت فقد دخلت قسم الفلسفة .

— نعم .

— عاطف دائماً يحدثنى عنك ، لذلك لم أجد صعوبة فى التعرف عليك .

نظرت إليه و لم أعلّق .. !!

— عندما يجد قصيدة لك بالمصادفة فى مجلة أو جريدة .. يقرؤها لى مرات .. ومرات ، ويقول إن دراسة الفلسفة لم تفسد شاعرية صبرى ، لكنها ساعدته على أن يكون شاعراً كبيراً ، مثلما كان يحلم ونحن فى الجامعة .

ـــ هذه مجاملة رقيقة من صديق عزيز .

شغلتنى هذه الملاحظ العابرة وأخذت أسائل نفسى : إلى أىّ حدّ يستطيع المرءُ أن يحول أحلام الصبا إلى واقع ؟ قطع حسين تأملاتى قائلا :

ـــ تصور أننى صرت أحفظ كثيراً من شعرك ؟

ـــ عاطف .. ما زال كما هو ؟

ـــ لقد تغير بعض الشىء فى السنوات الأخيرة ، أصبح زاهدا فى أشياء كثيرة .

تأملت الأرض غير المستوية للزقاق خشية أن أتعثَر ، وسألته فى فتور : هل تزوج عاطف ، وهل عنده أطفال ؟

ـــ نصف دستة .

اعترض طريقنا سرب من الأطفال فى ثياب قديمة قذرة ، يلعبون بكرة من القماش .. اتجه حسين صوب طفل حافى القدمين وسأله عن أبيه ، فرّد دون مبالاة ، وهو يواصل الجرى وراء كرة خطفها أحد زملائه : لا أعرف .. اسأل ماما .

لم أستطع ابتلاع ريقى . إحساس بالمرارة والاكتئاب تحوّل إلى سائل لزج يغصّ به حلقى . أخيرا .. وصلنا . كان البيت آخر بيت

فى ضواحى المدينة .. أية ضواح .. وأية مدينة .. ؟ وقفت أنتظره فوقع بصرى على ساقية مهجورة فى الشط الآخر من الترعة الراكدة . كيف استطاعت المدينة أن تلتهم كل هذه الأراضى الزراعية ؟! . تداخلت فى رأسى المتصدع بقايا الساقية المهجورة .. وهيئة أطفال جياع .. وواجهة منزل ، لا تدرى هل ينتمى إلى عالم الريف .. أم إلى عالم المدينة .. أم إلى عالم آخر ، لا هنا ولا هناك .. وربما كان هنا وهناك فى ذات اللحظة . ؟!

عاد حسين وعرق بارد يتجمع فى جبهته . أحنى رأسه ، فشاهدت ياقة قميصه ، كأنها لم تغسل منذ اشتراه .

ـ الأستاذ عاطف .. خرج ، ذهب إلى السوق ، امرأته تدعوك لانتظاره . (لم أستطع أن أقول شيئا ..) ننتظره عند أحد الزملاء هنا .. فى هذه الحارة .. لن يتأخر كثيرا .

أحسست بالغثيان .. وبأشياء أخرى ، لا أدرى ما هى على وجه التحديد . ظهر لى خاطر فجأة .. كتبت العنوان فى ورقة صغيرة ، وتحته عبارة « أريد أن أراك سريعا » .. وطلبتُ منه أن يسلم الورقة للزوجة ، خشية أن يضيعها الولد .

فى طريق العودة كنت حرج الصدر ، زائغ البصر ، مشتت

الفكر . لم أعرف شيئا ملموسا يتصل بصديقى .. لكن مشاعرى كانت مجروحة ، أخذت أستعيد المشاهد المؤلمة التى أبصرتها بعينى . كلما توقفت عند مشهد ازددت قلقا وهمًا . حين عدت إلى البيت كنت متعبا .. وجائعا ، لكنى لم أقدر على فعل شىء . ارتميت بملابسى على السرير وأشعلت سيجارة . اكتشفت بعد برهة أنى لم أخلع الحذاء .. وتلك عادة لا أكاد أفعلها .. لكنى لم أقدر .. و لم أرد ، لم أستطع أن أجمّع أعضائى المفككة ، كنت ثملاً تدور رأسه بغير شراب . ابتسمت سخرية لهذا الخاطر الشعرى : كيف نسكر ونحن لم نشرب بعد ؟!!

فيما أنا بين اليقظة والنوم أو بين الصحو والسكر ، رأيت أنى أسير فى بلاد عجيبة . مضيت أسير وأسير .. حتى تعبت وعطشت وجعت ، ظهر رجل غريب الهيئة أخذت أصيح فيه ، حتى عرف أنى أكلمه . استمَع إلىّ واستمعت إليه . غير أنه لم يفهم منى و لم أفهم منه . استوقفت غيره ــ وكانوا على نفس هيئته الغريبة ــ لكنى لم أفهم .. و لم يفهموا . أخذت أسير وأسير متوجهاً ناحية النهر ، فوجدته .. قد غاض ماؤه وصار بركة آسنة . ثم رأيت فيما يرى النائم أن أهل البلدة ، الظالم أهلها ، يخوضون فى ماء عكر . استطعت أن

أميّز بين الجموع الغارقة فى الوحل رجلاً ، له هيئة عاطف . تقدمت إليه مثل ضال رأى سراباً ، لكنه أيضاً لم يفهم منى ، و لم أفهم منه . وقفت حائرا ، بينما ناس يجدّون فى الطين بحثاً عن شىء عزيز مُفتقد . فجأة تطاول كائن خرافى ، وشرع يصيح :

« أيها الضائعون من ذاكرة الوجود : عبثاً تبحثون بين الأطلال الغارقة فى حداد الخريف عن غدٍ مُشرق ، لكن الدموع الحزينة لا تعيد خبز الفقراء الأسود ، والاستسلام العاجز لا يحرر من قيود العار . إن « ست » قد نشر ذراعيْه القاهرتيْن على الكون .. و « أوزوريس » مات .. « أوزوريس » مات .. !!

أيها السائرون جياعا :

على الأرض الخراب ، وفى الناس المذلة » !! .

أى أضغاث أحلام تلك التى راودتنى . ؟ لكن كيف أحلم وأنا .. وأنا لا أدرى هل كنت نائما أم يقظان .؟ أليس من المحتمل أن تكون قد ساورتنى حالة وجْدٍ صوفى ، أو أصابنى مسٌّ من الجنون .. ؟! .

غفوتُ مرةً ثانية ، فإذا بنفس الكائن الخرافى يصيح بى : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ولا كاتب .. إنما أنا شاعر . قال فى غضب : كيف يُشْعِر من لم يقرأ سفر الحنطة ، و لم يدرك سرّ الحكمة . ؟!

غبت عن الكون كأنى متّ .. و لم أدر بعدها ماذا حدث ، لكن الله قادر على بعث الموتى .. وإحياء أهل الكهف .. !!

قمت فزعا على طرق متواصل .. ظلام دامس يلف الغرفة ويحتوينى . حاولت أن أضيئ المصباح . الطرق متواصل ، عشيتْ عيناى . سرت مهرولا أحاول فتح الباب . شعاع من النسيم مرق أمام وجهى ، فساعدنى قليلا على استعادة الوعى . لم أكن قادراً بعدُ على معرفة الطارق .

— أستاذ صبرى .. أنا .. أنا عاطف .

كنت أترنّح كأنما أحمل صداع الكون كله . لو لم يلقنى بيديه ، لوقعت مغشياً علىّ . من عجب أن الصديق الطيّب ظنّ أنى تأثرت لرؤيته المفاجئة .. و لم أتحمل حرارة اللقاء والأشواق . ما زال عاطف طيّبا كما عرفته . بدأت أفيق فإذا بى أحتضن مومياء . كدتُ أعد ضلوع ظهره . قليلا .. قليلا بدأت أستوعب ملامح شيخ عجوز . جلس كل منا قبالة الآخر . أخذت أتأمله كأنى أنكره . مستحيل أن يكون هذا عاطف الشاب الرياضى الوسيم . أمر غريب ، عاطف صارت له لحية كثيفة . عاطف فى شبابه ، كان ذا شعر أصفر شديد الصفرة .. إلآن تداخل بياض الشيب فى شعره الأصفر الباهت ، كما

تداخلت وبهتت أمور كثيرة منذ افترقنا . أفزعنى أكثر انـكسار واضح فى عينه اليسرى ، بدرجة يكاد لا يقدر على فتحها .. وأظنه لو قدر فلن يرى شيئا .. وإنْ رأى فلن يـرى إلا طيفـا باهتـا للأشياء .. !!

ــ كيف حالك يا رجل ؟ .

قال بانكسار : أعيش والحمد لله .

ــ أخبارك .. قل كل أخبارك منذ افترقنا .. ؟

ــ أخبار عادية .. موظف بسيط فى وزارة التعـليم .. زوج تقليدى .. ستة أطفال ، وأظن أن هناك مولودا على وشك المجىء ..

ــ يا راجل لم أنت ظالم لنفسك ؟ .

ــ يا أستاذ صبرى .. العيال بركة وعزوة .

تذكرت هيئة طفله المهمل الحافى ، واستشعرت قدراً من الرثاء . والد عاطف كان مزارعا متواضع الحال ، غير أنه استطاع أن يعلم أكثر من ولد فى المدارس والجامعة .. فهل يقدر عاطف أن يفعل مثل أبيه ؟! لا أدرى لم تذكرت فى تلك اللحظة رواية فيكتور هوجو « البؤساء » ، التى استعارها عاطف منذ ربع قرن ، ولم يردها إلى اليوم .. !!

نظرت إلى سقف الغرفة ، فإذا سلك الكهرباء يتدلّى منه مصباح ، يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار . كان عاطف يثرثر فى أشياء كثيرة .. عن زوجته الحامل .. ومشكلات أطفاله .. وقسوة مهنة التدريس . تأملت قدميه العاريتين اللتين أخرجهما من شبشب صيفى قديم ، وقد برزت ساقاه الجافتان من جلباب أبيض . سألته دون أن أعرف أىّ مغزىً للسؤال : أما زلت تمارس الرياضة ؟ .

ــ الرياضة الحقيقية هى أن تروّض النفس ، حتى ترضى بما قسم الله لك . !! .

ــ هل أنت سعيد يا عاطف ؟ .

ــ السعادة هذه كلمة جوفاء ، يحاول الكثير من الناس أن يفهموها أو يحققوها ، لكننى أدرك حقيقة واحدة ، هى أنه ليس بأيدينا تحقيق السعادة أو دفع الشقاء .

بدأت أدرك أنى أخاطب شخصاً أكاد لا أعرفه . تذكرت الماضى ، تذكرت عاطفاً الشاب الوسيم وقصة حبّه العاثر مع صفاء . جاءنى ذات مرة يشكو صدّها ، طلب منى أن أكتب خطاباً لها باسمه ، لكننى رفضت فخاصمنى شهراً كاملا . العجيب أنى كنت ألتقى بها فى المكتبة ، ونتحدث فى أشياء كثيرة .. لكننى لم أستطع أن

أبوح لها بحب صديقي .. !!

أحسست بقدرٍ من الغيظ والغضب ، لكنى لم أستطع أن أطهّر نفسى من عاطفتى الخوف والشفقة .. !! .

الأمر الذى أدركته جيدا فى النهاية أنى لم أعد قادراً على مواصلة الحوار معه . تذكرت أنى لم أقدم له تحية . قمت متثاقلاً وأحضرت له زجاجة برتقال ، فذكر اسم الله الكريم ، وشربها دفعة واحدة . أخذنا نثرثر بفتور عن ماذا .. ؟ لست أدرى .. ولا أتذكر . لعنت حسين سعودى فى سرى . استأذن عاطف بعد فترة بحجة أنه ينام مبكرا . ودعته عند الباب .. وغاب فى شارع طويل . انتابتنى مشاعر متضاربة .. أرثى له أم أسخط عليه ؟ .. هل وجدت الراحة التى كنت أنشدها أم لا ؟! وسط هذه الحيرة قررت أن أعدّ حقيبتى .. وأن أعود ..[1] !

---

(١) الدوحة ــ أكتوبر ١٩٨٦

ــ نشرت فى مجلة « أخبار الأسبوع » القطرية فى ٣٠ ــ ٤ ــ ١٩٨٨ .

تـداعيـات ... !!

خرج مع بداية المساء .. وسار وحيدا فى شوارع مزدحمة . كان يعانى بعض الضيق ، ويكابد بعض الآلام النفسية ، لذلك آثر أن يخرج .. أو يهرب من عالم البيت . أنساه التسكع بعض ما يعانى منه ، فقد ألف النسيان بالمعاشرة . عرف ذلك بعض أصحابه وزملائه ، وصاروا يقابلون نسيانه بقدر من الهدوء الساخر .. أو السخرية الهادئة . أما هو فكان إحساسه بالنسيان مَرضياً إلى حدٍ ما . صحيح أنه ما زال فى الأربعين .. وأن داء النسيان الذى أصابه من نوع غير خطر حتى الآن ، لكنه صار عادة ملازمة ، تزيد من إحساسه بالأسى والبؤس ، خاصة أن هذه العادة ، تُوقعه فى بعض أزمات ، لا يستطيع ــ أحياناً ــ أن يجد لها حلاً ، تعمّد أن يزور أمه ، ويسألها عن السبب ، عندما حدّثها ــ بضعف وانكسار ــ شعرت بجروحه ، أخذت تربت على كتفه قائلة :

ــ أنت محسود يا بنى . أعوذ برب الناس من شرّ الناس . حافظ على الصلاة يا ولدى ، واتل عندما تقع فى ضيق سورة « قل أعوذ

برب الفلق » ، حتى يصرف الله عنك كيد الحاسدين .

عندما حدّث زوجته فى الأمر نصحته ــ بقدر من الخبث الأنثوى الرقيق ــ أن يحمل مفكرة صغيرة ، يكتب فيها كل شيء .. كل شيء ، وسوف تذكّره بما يجب أن يفعل كل يوم . استمع إلى نصيحتها ، لكنه كان لا يتذكر أحياناً أين ترك المذكرة ، فقالت له الزوجة ــ أم العيال ــ ساخرة :

ــ أنت فى حاجة إلى مذكرة تذكّرك بمكان المذكرة .. النسيان علامة الشيخوخة المبكرة يا زوجى العزيز . !!

أسرّهمّه إلى أحد زملائه المقربين ــ فى وزارة الأوقاف .. إدارة الوقف الأهلى ــ فسخر منه ، وهو يطرق المكتب بيده اليسرى قائلاً :

ــ لو فعل كل واحد مثلك ، لدخلنا المستشفى جميعاً .. !!

واصل السير لا يلوى على شيء .. ولا يفكر فى شيء ــ هكذا خُيِّل له . أحس بقدر من الراحة وهو يسير وحيداً ، دون ثرثرة الزوجة وصياح الأطفال (آيس كريم يا بابا ــ سندوتش جبنة رومى ــ كراسة للموسيقى ــ لم يعد فى الثلاجة قطعة لحم) . تأمل الشارع فى ليلة منعشة من ليالى الخريف . الوحدة .. الحرية ..

ياسلام !! تذكر أن زوجته العزيزة .. بل العزيزة جداً ، ليس من السهل أن تتركه يخرج هكذا دون سبب . كيف يمشى على حلّ شعره ، وهى تتحمل عبء البيت .. ومذاكرة الأولاد وحدها ؟ حاول أن يتذكر الحيلة التى تخلّص بها من زوجته .. لكى يخرج فى أمان دون تحقيق أو استجواب .. أو زعيق . !! بدأ يدرك أن للنسيان بعض فوائد .

وضع يده اليسرى فى جيب البنطلون ، وأخذ يعبث باليمنى فى سلسلة المفاتيح . مضى يقرأ أسماء المحلات ولافتات النيون الملونة ، ويسخر من الأتوبيسات الممتلئة والتاكسيات الخالية . الشارع مزدحم بالناس والسيارات .. لكن هناك شيئاً ما .. شيئاً ما لفت نظره ، كل واحد يمشى مثل جزيرة منعزلة وسط محيط زاخر ، حتى أولئك الذين تحسبهم جميعاً ، هم فى الحقيقة ذرات متباعدة . بينما هو مستغرق فى التأمل والتفكير كاد يصطدم .. قبل أن يصطدما توقّف الآخر برهة ، لا يعرف مداها . ليته اصطدم .. لكن كيف .. ما .. ماذا حدث ؟ إنه ليس .. بل هى — هى التى توقفت قيد أنملة منه . امرأة فى هذا الجمال النادر والفتنة الطاغية ، لا يمكن أن تسير مثله ، مغمضة العينين ذاهلة البصر والبصيرة . كيف تمشى أمامه دون أن

يلتفت إليها ؟ يا سبحان الله ما هذه امرأة ، إن هى إلا جيش مدجج بكل أنواع الأسلحة الرشيقة !! لا بد أنها هبطت من السماء ، أو انشقت عنها الأرض .. من أين طلعت تلك الحورية الفاتنة ؟ كاد يصطدم بها وكادت .. لكنها توقفت قبالته مباشرة . هنيئاً لك يا مؤنس ، رأيت إحدى علامات الجنة وأنت لا تزال فى الدنيا . ما هذه بشراً !! وجه يدرى أبيض يشع منه هدوء ملائكى وضوء نورانى . خدود متوردة مثل التفاح . شفتان مكتنزتان أو بالأحرى حبتان من ثمر الفراولة الناضج . ذقن ناعم الاستدارة . بشرة صافية مثل اللبن الحليب .. أما العيون .. فآه ثم آه .. آه من سحرها .. حوراء .. ناعسة . الشعر أسود ناعم مقصوص ، مثل عرف مهرة عربية أصيلة .. !! كل هذا رآه بين طرفة عين وانتباهتها . وقف مشدوهاً وقد نسى نفسه .. بل كاد ينسى الدنيا كلها ، اعتذرت المرأة بإيماءة خفيفة سريعة ، ثم واصلت سيرها وحيدة . كما ينجذب الفراش نحو النور ، والمريد ناحية القطب الصوفى ، استدار وغير المسار . أخذ يتفحصها من فوق إلى تحت . كيف خلق الله هذه الجميلة ؟ .. كل ما فيها رشيق ورقيق .. !! ما زال منجذباً إلى ذات القدّ المتناسق والفتنة الطاغية ، بعد خطوات معدودات بدأ يدرك أن بعض

الفضوليين ينظرون إليه بشيء غير قليل من الازدراء . أحس — بينه وبين نفسه — بقدر من الحرج والارتباك . إنه لم يعهد نفسه على هذه الشاكلة أبداً ، فهو — بالفعل — رجل مهذب بشهادة الكثيرين ، يدرك أن الإنسان فى واقع متحضّر ، يجب أن يحترم حرية الآخرين حتى يحترموا حريته .. ماذا جرى لك يا سيد مؤنس .. ما هكذا ينبغى أن يكون سلوك الرجل المتحضر ؟ مرت اللحظة سريعة عريضة وعاد إلى نفسه مسترداً بعض وعيه الغائب . لم يستطع أن يغيّر مساره ، ومضى غير ملتفت أمامه . بين حين وآخر كان يسترق النظر من قرب بعيد أو بعد قريب . ما زال الوجه الجميل يرتع فى خياله .. ويلعب بفؤاده . ترى هل هذه الحسناء زوجة أم عذراء . ؟ راودته فكرة غريبة : لم لا نستطيع — نحن الشرقيين — أن نتصوّر الجمال فى غير امرأة ؟! الجمال والمرأة صنوان متلازمان .. !! تلك فلسفة عابثة ، وأمامه الآن حقيقة واقعة . تمتعْ برؤية الفاتنة قبل أن تغيب يا رجل ! رجع وكله عيون تبحث . حاول البحث مرات هنا وهناك . لا جدوى . كأنما الأرض انشقت وابتلعتها . أين ذهبت .. كيف عن ناظريه غابت ؟ لعن الفلسفة والتأمل .. وعاد إلى نفسه حيران أسفاً . الوجه البدرى المنير ما زال يملأ عينيه ويسد عليه كل

طريق . لكن أين وكيف ذهب .. وضاع .. وتلاشى فى الزحام .. ؟!! تمنى أن يعاوده الداء القديم .. ورغب فى أن ينسى .. ينسى كل شىء . لكن النسيان وقت الحاجة يصير عصىّ الاستجابة . هناك ـ بلا ريب ـ علاقة بين الجمال والتذكّر ، وبين القبح والنسيان فلسفة أم سخرية .. هذا كل ما تقدر عليه الآن يا مؤنس . فكّر فى أن يرجع مرة ثانية . لا بد أنها دخلت محلاً تشترى غرضاً ما . منّى النفس .. وأورقت الأمانى ، فعاد من حيث أتى . سار مثل طفل غريب ضال ، يبحث عمن يعيده إلى الأهل والوطن . كلما أنعم النظر ـ هنا وهناك .. عن يمين وشمال ـ رأى رجالاً ونساء كثيرين ، لكن المرأة الفاتنة اختفت .. ضاعت . كل الأشياء الجميلة عمرها قصير !! ما زال عنده أمل .. لم لا يجرب الجلوس فى مقهى ؟ تلك حماقة من وجهة نظره ، لم يكد يرتكبها إطلاقاً . لكن هذه ضرورة .. سوف يريح قدميه على الأقل . قد تأتى .. وربما .. كل شىء جائز . أوه .. لقد عاوده النسيان ، لا يوجد أى مقهى قريب من المكان الذى اختفت فيه فجأة . أحس ـ فى النهاية ـ بقدر من العزاء والسلوى ، وهو يسير فى موقع كانت تخطر فيه وتختال . !! راودته فكرة جد غريبة .. لم لا يعود إلى المكان نفسه الذى كاد

يصطدم فيه بها .. إلى الأطلال يا عزيزى مؤنس . أية أطلال واللقاء لم تكدْ تمرّ عليه دقائق معدودات؟ كرر الطواف مثنى وثلاث ورباع ، غير أن الشوق لم يبرد والأمل لم يجف !! شيئاً فشيئاً تحولت النشوة إلى غصة ، وانقلبت الغصة إلى حسرة . لا جدوى .. لا أمل .. لقد نسي مرة أخرى ، نسى أنه رجل متزوج . ترى ماذا يحدث لو ضبطته زوجته متلبساً بأفعال المراهقة هذه . ؟!

أحس الإثم واستشعر الذنب حين تذكر زوجته . أدرك أنه أفاق من حلم جميل . أى حلم يكون .. وهو صاح يسير وسط الطريق ؟ لا تزال صاحبة الوجه البدرى مسيطرة على خياله ، وهو يفكر فى العودة إلى داره . أليس من الجائز أن تكون تلك الفاتنة ليست إلا شطحة أو تهيؤاً ؟ شيء ما أثلج صدره حين أيقن أن ما رآه حقيقة وليس وهماً .. !! مشى صوب البيت محاولاً أن يتذكر السبب الذى خرج من أجله . إيه .. يا كريمة يا زوجتى ، ماذا طلبت منّى على وجه التحديد ؟! لا بد أن فى الأمر شيئاً ما .. لا بد أن كريمة طلبت شيئاً .. ما هو يا مؤنس ؟ لا بد أن تتذكر حتى تعود فى أمان إلى البيت . لم يعد قادراً على أن يراها ثائرة . لكن لم تثور عليه كريمة .. لماذا ؟ آه .. آه لقد تذكر والحمد لله .. لقد طلبت منه أن يشترى

خبزاً للعشاء ولسندويتشات الأطفال فى الصباح . لا شك أن الله أرسل إليه تلك الجميلة لكى تذكره بما كاد ينساه . تعجب من حكايته مع النسيان .. كيف ينسى إنسان خبز عياله .. ؟! لقد تعوّد على الحرمان ، وقد يستطيع هو أو زوجته أن يصبرا ، لكن كيف يتحمل الأطفال صرخات المعدة ؟ عاوده الإحساس بالإثم العظيم ، حين تذكر أن أبناءه جوعى ساهرون فى انتظار الخبز . زوجته .. امرأة حكيمة ، لا بد أنها تصرفت بشكل أو بآخر . نظر إلى ساعة يده فوجدها العاشرة مساء . أفزعه منظر الأبناء يصيحون جوعاً . هدأت مخاوفه ، حين تذكر أن البيت ما زال به بعض خير ، حمد الله ورضيت نفسه قليلاً . سوف يعود حاملاً الخبز .. وقد تكون الزوجة فى انتظاره بعد نوم الأطفال . منّى نفسه بليلة سعيدة ، بعد أن حركت ذات الوجه الجميل شجونه . تعجب من نفسه ولها ، كيف تغريه امرأة غريبة بأن يدلل شريكة حياته .. ؟! أبطأ فى مشيته حين اطمأن لهذه الفكرة وأشعل سيجارة . تذكر وهو يضع الولاعة فى جيب البنطلون ، أن تلك الليلة السعيدة المنتظرة يلزمها بجوار الخبز الطازج بعض ما يفتح النفس ، وينعش الروح . طارت أحلامه الوردية عندما وجد فى جيب البنطلون خمسة وستين قرشاً فقط

لا غير . مازال فى بداية الشهر .. لكن الراتب ضاع معظمه ، واحتفظت الزوجة بالباقى القليل من أجل الضروريات . حياة بائسة وجنيهات قليلة وأطفال كثيرون .. هذه هى القضية ، بل هذه هى المأساة المريرة !! لا أمل حتى فى عشاء متواضع مع الزوجة العزيزة .. !! يا رجل لم أنت متشائم هكذا . ؟ البيت — بفضل كريمة الحكيمة — فيه بعض خير ، مثل البيض والسلمون والجبن الأبيض وبقية من طبق بامية ، وقد لا يخلو الأمر من بعض الخضروات الطازجة . حقيقة لا توجد فاكهة .. لكن ما لنا نحن وللفاكهة يا عم مؤنس ؟ يكفى كوب من الشاى المضبوط وسيجارة كليوباترا ، وتكون الحالة آخر تمام .. والحمد لله ، الذى لا يحمد على فقر سواه .. سوف تكون ليلة سعيدة رغم كل ذلك . !!

مضى يحس نشوة لم يمارسها بعد . اتجه نحو مخبز « الجهاد » فى ميدان الدقى العتيق . تخلص كلية من فكرة أن يرى المرأة الجميلة مرة أخرى . ما فائدة أن تفكر فى امرأة غريبة وعندك واحدة . ؟ كلهن عيوشة . الجمال شىء نسبى .. القناعة كنز لا يفنى . كن جميلاً تر كل شىء فى الحياة جميلاً . !! من قال هذه الفكرة الرومانسية العظيمة . !! أخذ يحاول التذكر واستعاذ بالله خشية أن يعود إليه

النسيان فيما هو أعظم أو أجل . انتبه وهو يعبر الميدان ناحية المخبز . النسيان فى كل أمر جائز إلا أمام عجلات السيارات والأتوبيسات . يجب أن نحافظ على الحياة .. لأننا عندما نتزوج وننجب ، لا تكون حياتنا ملكاً لنا .. وإنما لكائنات بريئة أتينا بها دون ذنب إلى حياة كلها فقر وخوف . لكن لماذا يكون الأطفال فى هذه الحياة مسئولية آبائهم فقط .. ؟! أيقظته من تأملاته سيارة ذات ضوء باهر . اجتاز الميدان فى أمان . صار على بُعد خطوات من المخبز . عندما وصل رأى طابوراً طويلاً متعرجاً يسد الرصيف .

يا سبحان الله ، كل هؤلاء الواقفين تعساء .. فقراء مثله . أحس حسرة أليمة ، ليس على نفسه فقط .. وإنما على كل الواقفين طابوراً.! إنه ليس فرداً .. بل أمة تبحث عن رغيف !! حاول أن يبتلع ريقه ، وأن يوقف تيار خواطره الحزينة . استقر فى آخر الطابور مشتت الفكر زائغ البصر . خشى أن تكون كريمة ما زالت فى انتظاره . كيف سولت له النفس أن يفكر فى امرأة سواها ؟ لقد قتر الله عليه فى الرزق وأكثر من العيال ، لكنه أعطاه زوجة صالحة ، تدور مثل النحلة .. تعمل .. تطبخ .. تغسل .. تنظف البيت .. تذاكـر للأطفال . أكثر من هذا ماذا يمكن أن تعطى امرأة طيبة لزوج فقير

مثله . ؟!

تحرك الطابور فى بطء بارد . وصلت إلى سمعه ثرثرة الواقفين عن أزمات لا تنتهى .. أزمة غلاء .. أزمة سكن .. أزمة تموين .. أزمة أخلاق .. وأخيراً أزمة خبز . !! لم يحاول أن يجيد الإصغاء ، حتى لا تزداد همومه وأحزانه . حمد الله أن وهبه نعمة النسيان . لم لا يحاول أن يتناسى كل دواعى الألم — وهى كثيرة ؟ تناسى كل أمر ، وأمسى حلمه أن يحصل على عشرة أرغفة . تلك الأرغفة العشرة صارت غاية الأمل . !! سوف يطعم الأولاد .. ويسعد زوجته .. ويجد الجميع سندوتشات الصباح .. المهم أن يحصل على الخبز . فجأة برز رجل طويل ضخم الجثة عريض الظهر ، يلبس جلباباً صوفياً واسعاً وطاقية . دخل برهة .. برهة قصيرة جداً ، ثم خرج فى لمح البصر حاملاً كيساً ممتلئاً ، تفوح منه رائحة الخبز الساخن . أعطاه صاحب المخبز الكيس دون أن يقول له شيئاً .. أو يأخذ منه قرشاً واحداً . اختفى الرجل الضخم العريض .. اختفى فجأة كما ظهر فجأة . لم يغد قادراً على تحمل مزيد من المفاجآت . ماذا حدث له .. أو للدنيا .. لا يدرى ؟! ليته ينسى .. كيف ينسى وقد رأى الرجل بعينيه .. ؟! أيقظه أن الواقفين مثله فى الطابور الطويل المتعرج

بدأوا ـــ بعد أن اختفى الرجل ـــ يتذمرون ويتغامزون ويتساءلون .. ويلعنون الفقر . ما فائدة أية ثرثرة أو همهمة .. أو بغبغة .. وقد أخذ الرجل الضخم ما أراد ، وخرج فى سلام وأمان وثقة وكبرياء ؟ لو كان الفقر .. لو كان الفقر . ! أنا فقير ، إذن أنا بائس .. هذه هى الحقيقة !! تعجب من تلك المفاجآت التى حدثت أمامه فى ليلة واحدة . !! تحرك الطابور . الحمد لله سوف يأتى دوره . أحس بالتعب والإجهاد من الرأس إلى إصبع القدم . تداخلت ـــ فى مخيلته ـــ وتعارضت : هيئة أمه البائسة ، وطيف المرأة الجميلة ، وشبح الرجل الضخم ، وصورة زوجته الحزينة ، ومنظر رغيف طازج . بعد مدة لا يعرف مداها تحرك الطابور أسرع . رأى صاحب المخبز .. وعامل الفرن ، ومنظر الأرغفة تتحرك أمامه . الأيدى الجوعى تخطف خبزها .. وتجرى مسرعة ، ثم تغيب هى الأخرى كالبرق . فجأة صاح البائع :

ـــ الخبز انتهى . العجين غير صالح للخَبْز الآن ، من يرد يأت بعد ساعة .. أو بعد ساعتين يكون أفضل .

تذمر التعساء الذين لم يدركهم الدور .. لماذا .. كيف .. غير ممكن .. غير معقول ؟! لا فائدة من الكلام . الرجل أصم .. لا

يهتم . !! احتار ماذا يفعل ؟ لو رجع إلى البيت خائباً لصاحت فيه الزوجة .. ثم هناك ما هو أهم من صياخ الفم .. وهو صياح المعدة الجائعة . إن استطاع هو أو زوجته أن يصبرا على الجوع ، فكيف يقدر على ذلك الصغار الأبرياء ؟ وإذا انتظر ساعة فمن يدرى قد تصبح الساعة .. ساعة ونصفاً .. أو ساعتين .. أو .. ماذا يعمل .. لا يدرى ؟! جف حلقه المر .. تمنى أن يهد المخبز على من فيه جميعاً . اختلطت فى الرأس المتعب الأوهام بالحقائق ، وتداخلت الأشياء بالطول والعرض ، وتداعت الأمور من كل اتجاه . تمنى أن تحل عليه نعمة النسيان . الأمر الوحيد الذى يتذكره جيداً الآن أنه ينبغى عليه أن ينتظر. تناسى هيبته المزعومة ، وجلس فى انكسار على الرصيف ، ينتظر دوره فى طابور الخبز ..[١] .

---

(١) الدوحة — يناير ١٩٨٧ .

— نشرت فى جريدة « الراية » ، قطر — ١٤ نوفمبر ١٩٨٧ ..

— .. جريدة « المساء » القاهرة ، ٧ أكتوبر ١٩٩٠

موقف في حياة صعلوك

(دائرة اللهب)

انتصف ليل القاهرة أو كاد ، لكن حركة الحياة لم تتوقف ، رغم برودة « يناير » اللاذعة . قادته قدماه إلى ركنه المنعزل فى قهوة « الفيشاوى » . لا يدرى كيف وصل .. ولا أىّ طريق سلك ، غير أنه أحس راحة شديدة ، حينما جلس متهالكاً على الكرسى الخشبى . لم يجد صعوبة — رغم الزحام — فى أن يصل إلى حجرة ، فيها مجلسه المفضل . هنا مارس كل الأنشطة التى يبيح القانون ممارستها فى مكان عام .. !! يحلو له — أحياناً — أن يقضى الليل فى هذه الحجرة ، ليس مهما أن ينام ، المهم هو أن يقتل إحساسه بالوحدة والوحشة . إحساس مرعب مدمر أن يحس امرؤ الوحدة والوحشة ، وهو يعيش فى مدينة تعدادها اثنا عشر مليونا من البشر . آه يا قاهرة .. !! أيقظه الجرسون دون أن يلتفت إليه :

— شاى يا أستاذ أحمد ؟

أومأ له بإشارة بطيئة . فى اللحظة التى غاب فيها الجرسون . ظهر ماسح أحذية ، أخذ يضرب بفرشاة خشبية على صندوق صغير ،

فتغافل عنه ، موقناً أن حذاءه قد صار أرخص من القروش ، التى يمكن أن يمسح بها ، كما أنه ــ أى الحذاء ــ صار أجرب لا ينفع معه أى لون ، وأهم من هذا وذاك هو أنه لا يحتكم على أىّ نقود . !!

جاء الجرسون ، ووضع أمامه الصينيةَ وبراد الشاى ، وكوباً بها بعض السكر ، وورقة نعناع أخضر ، وكوباً آخر بها ماء . احتسى الماء بسرعة أملاً فى أن يسكت معدته الخاوية . بينما كان يذيب السكر فى الشاى برتابة وهدوء ، أخذ يتأمل زبائن المقهى ، وهم يلعبون الدومينو أو الطاولة ، ويدخنون الشيشة أو الجوزة ، ويشربون القرفة أو الزنجبيل أو الشاى ــ مثله ــ أو الحلبة المطحونة أو القهوة . ثمة عالم غريب عجيب يحاولون قتل ليل الشتاء البارد بصبر وعناد . البرد جعل الناس يقتربون من بعضهم البعض ، ويتعاملون كأنهم أصدقاء حقيقيون ، مع أنهم اجتمعوا صدفة .. وسوف يفترقون صدفة . أرهف السمع ــ دون قصد ــ لأحاديثهم الساخرة حول قسوة البرد وغلاء الأسعار واختفاء الحشيش . تأمل ملابسهم المتواضعة وعيونهم المرهقة ، فرأى فيهم صورة منعكسة لحياته الضائعة .. غير أن هؤلاء الضائعين ــ فيما بدا له ــ كانوا أسعد حالاً منه ، لأنهم يعيشون الفقر ، ولا يشعرون به مثله على الأقل . زاد من إيمانه بهذه

الفكرة أن وجدهم يتحلقون حول واحد منهم ، بدأ يغنى بصوت مجروح :

إنْ كان بِـدّك تِريّـحِ القـلبْ وتهدّى
اتركْ هوِى الدنيا ، لاتاخُدْ منها ولا تـدّى
حسبِكْ تقُول عمى ولا خالى ولا جِـدّى
دا اللّى معاه مالْ مالكْ دِى ومـالكْ دِى
واللّى بلا مـال تـاركْ دِى وتـاركْ دِى

صاح واحد من المستمعين منتشياً :

ـــ شاى على حسابى يا معلم لشلة الأنس . !!

تمنى أن يكون قريباً من الشلة ، حتى تشمله موجة الكرم المفاجئ ، ويشرب شاياً على الحساب . لا فائدة ، إنه ـــ كما تخيل نفسه ـــ هكذا دائماً .. لا هو مع الناس ولا هو بعيد عنهم .. !! لقد حاول .. وحاول ، لكنه دائماً يفرّ ويهرب . شكّل الفقر بالنسبة له حداً مثل سور الصين العظيم ، يحول بينه وبين البشر . لم يكن أمياً بحيث يتجه إلى حرفة ، ويكون على الأقل مثل جاره الأسطى دسوقى الحلاق . كما أنه لم يكمل تعليمه ، بحيث يستطيع أن يشغل وظيفة محترمة . إنه مجرد حاصل على الثانوية ، ويعمل ـــ منذ خمس عشرة

سنة ــ معاوناً لمدرسة ابتدائية . لكن الذى أفسد حياته ودمّـر كيانه ، توهمه منذ وقت مبكر ، أنه يمكن أن يكون كاتباً صحفياً ، فأخذ يشترى الجرائد والمجلات ، ويكتب ويرسل إلى كل الصحف والمجلات .. لكن اسمه لم يظهر حتى الآن سوى مرتين فى بريد القراء . بين الحلم والواقع ضاعت جنيهاته وقروشه ، واغتربت نفسه وروحه . أمسى يؤمن أنه غريب .. مضت المسافة تتسع بينه وبين الناس فى العمل .. وفى الحارة .. وحتى فى المقهى .. !!

لعن ــ فى النهاية ــ فى السر والعلن الصحف والصحافة ، وقرر أن يكون ممثلاً .. فناناً ، والفن ــ فى تقديره ــ موهبة لا يحتاج المرء معها إلا إلى النوايا الطيبة . بدأ يتابع مجلات السينما ، ويتعاطـى مشاهدة الأفلام المحلية والأجنبية .. وأخذ ينتظر الفرصة السانحة . توهمّ ذات مرة أن الممثل الذى يقوم بدور الرجل الطـيب على الشاشة ، هو كذلك بالفعل فى الواقع . راح ينتظر الممثل الطيب ــ كما تصوّر ــ فى أقرب مسجد إلى بيته كل يوم جمعة ، غير أنه اكتشف بعد نصف سنة أن الرجل لا يزور المسجد ألبتة ، بعد ذلك اتهم نفسه بقصور الرؤية وقلة الوعى ، وقال : لم لا أطلب المساعدة من ممثلى أدوار الشر ؟! لكنه اكتشف ــ بعد فوات الأوان ــ أن كل الطرق

إلى الشاشة الكبيرة أو الصغيرة مسدودة .. مسدودة ، وأن لا أمل .. لا أمل . رأى فى نفسه صورة مجسدة للفقر . لولا الفقر لما مات أبوه دون علاج .. ولا توقف مسار تعليمه .. ولا ما تزوج حتى الآن . الفقر لعنة .. والفقراء مبعدون .. مستبعدون .. !!

ترك المقهى .. وطاف حول مسجد الحسين مثنى وثلاث ورباع . تعب من كثرة الطواف فجلس أمام المسجد . أدرك حين رأى الحركة الصاخبة فى الميدان أن الفجر ما زال بعيداً .. وربما بعيداً جداً . لكن التعب والضياع كانا أكبر من أى إحساس آخر . أيقظه من غفوته شرطى فى ملابس سوداء كأنه عفريت . أبرز له بطاقة تحقيق الشخصية طالباً عفوه ، ثم مضى لا يدرى إلى أين يمكن أن يذهب ؟! أحس قشعريرة أشد برودة من ليالى الشتاء . حين توهم أن عينى الشرطى لا تزالان تتعقبانه ، أسرع فى الحوارى والأزقة .. حتى وصل إلى شارع المعز . الشارع متعرج مثل أفعى رقطاء . الهدوء الموحش يظلل المكان . لا صوت .. لا حركة .. لا أحد يمشى فى هذا الليل البارد سواه . سوّلت له نفسه أن يعود إلى المقهى .. لكن ماذا يفعل هناك و لم يعد معه قرش واحد . أفضل شىء هو أن يذهب إلى البيت لينام ، حتى يذهب إلى المدرسة فى

الموعد ، ولو مرة واحدة . الناظر استخدم معه كل أساليب الزجر والعقاب بلا جدوى . أخيراً كتب عنه فى ملف الخدمة « لا ينقل ولا يرق ولا يفصل ولا يأخذ علاوة » .. يعنى موظف مع إيقاف التنفيذ . تحسر على ما آل إليه حاله ، وقرر أن يبدأ من جديد بداية صحيحة . يجب أن يرضى بالقضاء والقدر . وأن يؤدى واجبه كما ينبغى .. وأن ينسى كل الأحلام أو الأوهام التى أفسدت حياته !!

وصل أخيراً إلى البيت . تلمس طريقه بحذر على السلم المظلم والسور الحديدى المتآكل . أخذ يصعد درجة درجة ، وأصداء صخب المقهى ومطاردة الشرطى وبرودة الليل تزيد من آلامه ومخاوفه . حاول أن يفتح الباب — باب غرفته — بهدوء ، حتى لا يوقظ النائمين ، لأنه يشغل غرفة فى شقة مشتركة ، توجد بها ثلاث غرف أخرى ، فيها ثلاث عائلات . شعر بقدر من الراحة ، حين سمع فى الظلام حركة المفتاح تؤذن بفتح الباب المغلق . ظلام الحجرة أشد من ظلام السلم . صاحب البيت قطع عنه النور ، لأنه غير مواظب على دفع الأجرة . لعن الظلام .. وصاحب البيت .. وناظر المدرسة .. وجرسون المقهى .. وشرطى البوليس ، وارتمى متهالكاً على الحصيرة . لدغه البرد بشدة . رغم برد الحصيرة وظلام

الحجرة .. استلقى على ظهره ، وتطاول بملابسه وحذائه البالى الأجرب . جذب البطانية المتآكلة وغطى جسده المتعب من القدم إلى الرأس . أحس أنه لم يسترح لحظة فى حياته . حاول أن يطرد أشباح الخوف والبرد . قليلاً قليلاً بدأ يحس بعض الدفء . أخذ النوم يداعب جفونه . فيما هو بين اليقظة والمنام رأى طيف أبيه يقول له : « كن شجاعاً يا أحمد .. حاول أن تبدأ منذ الآن بداية جادة .. بلاخوف .. وبلا وهم . !! »(١)

---

(١) الدوحة — فبراير ١٩٨٧

— نشرت فى جريدة «الشرق» ، قطر — ١٤ يناير ١٩٨٨ .

دائرة اللهب

ارتمى على السرير مهدود الحيل . حاول أن يبحث عن النوم ، كما يحاول جمل أن يدخل من ثقب إبرة . أحس أنه فى منزلة بين المنزلتيْن . الجسد مسجّى على السرير ، كأنه معلق بمسامير . الرأس به خدر ثقيل كأنما أصابته حمى . فيما هو بين اليقظة والمنام ، رأى فيما رأى أن قذف به إلى حجرة مثل حجرة الساونا (Sauna) . النار تتلظى . العرق يتصبب من كل أجزاء الجسد المعذّب . الجو خانق . حاول أن يجرى . الباب مغلق . قطعة زجاجية فى الباب تجمعت حولها قطرات ماء فى شكل شبورة . حاول أن يستغيث .. أن يهرب .. أن يتحرك .. أن يفعل شيئا .. أن يفتح الباب .. اللهب تشتد حرارته .. أحس أنه يذوب .. ويتلاشى ، كما يضيع شعاع من الضوء فى قعر بئر خربة . جيوش من النمل تتحرك داخل رأسه ، تنهش أعصابه بلا رحمة . حاول أن يهز رأسه ليسقط النمل . أخذ يحاول .. والنمل متكالب عليه ، أخذ يحاول .. ويحاول .. ويحاول . استطاع بعد عناء أن ينقلب من الظهر إلى الجنب الأيسر . أخذ نفسا عميقا ،

وهو يلعن الكوابيس التى بدأت تطارده ليل نهار . أخذ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال . عاودته آلام الليل . ضم الوسادة المعذّبة إلى صدره . كلما ضمها أكثر أحس أن قصبته الهوائية مثل « شكمان » متآكل . النيكوتين يتجوّل مرتعشاً فى رئتيه . قذف الغطاء برجله اليسرى ، فأحسن آلامًا فى الركبة . بكت الأعضاء المتعبة على الأجزاء القلقة . لم يستطع أن يحدد موقع اللحظة على خريطة الزمن . أىّ سؤال يبدأ بمتى أو أين أو كيف ، لا يعرف له إجابة . الشىء الوحيد الذى يدركه تماما .. هو أن الوقت ليل والظلام يحيط به ، والجو شديد الحرارة . هل طال ليله أم لم ينم ... ؟! خفاش القلق يرفرف على ليل الغربة . حاول أن يضىء الغرفة .. حاول .. وحاول .. ؟! خليج سرمدى من الظلام بين السرير والكمودينو . اصطدمت يده بالسرير مرة ، وبالكمودينو أخرى ، وبالحائط مرات ومرات . عشيت عيناه ، بينما إصبعه ما زالت ضاغطة على مفتاح الأباجورة . قليلا .. قليلا بدأ يحاول أن يتعرّف على معالم حجرة المنفى . ساعة الحائط .. من الذى جاء بها إلى هنا .. ومن .. من الذى اختارها بهذا الإطار الأسود ؟! أوه .. أوه .. عقارب الساعة متوقفة . صورة رجل ريفى عجوز ، باهتة الملامح . ترى ماذا يربطه بذلك الأب

الذى كان .. و لم يضع الآباء أبناءهم فى الدنيا ويولون الأدبار ؟!
منضدة عرجاء تنوء بأشياء .. وأشياء ، كأنها بقية من بقايا سفينة
نوح . مجموعة من الصراصير تتحرك فوق الأمتعة المهملة . تنتشر
الصراصير، تتحرك هنا وهناك .. هناك وهنا . الصراصير تنتشر فى
كثير من الأجزاء الظاهرة والمختفية ، حتى الكتب والجرائد حظيت
بشرف استقبال الموكب العظيم . خدر ثقيل يتحرك فى بطء خلف
عظام الأذنين .. ما زالت للنمل بقية ، لم لا يفكر فى الماء حتى يغسل
أعصابه المرهقة ؟ تأمل أرض الغرفة .. أخذ يبحث بين الأشياء
المتناثرة والمتنافرة عن الشبشب ، أزاح بأصبع قدمه جريدة ..
وزجاجة فارغة .. وطبقاً . ظهرت فردة وبقيت أخرى . أخذ
يعرج ، ويبحث فى عالم الأشياء المهملة . لا يدرى منذ متى لبس
الشبشب . ولا يدرى إن كانت فردتا شبشبه متشابهتين أم غير
متشابهتين . وجد مظروفا على الأرض فأخذه بفرحة طفل . أخذ
يعالج الأمر بحكمة وصبر ، حتى دخل الجزء الأمامى من قدمه فى
المظروف . اتجه نحو الحمام ، وهو يحاول ضبط جاكتة البيجامة ،
التى سقطت معظم أزرارها . فى المدرسة قال له الناظر :

ـــ أولياء أمور كثير من التلاميذ يشكون من ضعف المستوى .

ـ يا حضرة الناظر التلاميذ لا يجيدون العربية فكيف يتعلمون الإنجليزية . (Do You understand me !?) .

ـ ما هى قاعدة (Although) يا أستاذ نبيل ؟

ـ تأمل هذه الجملة يا بُنىّ :

(Although Hassan is poor; he is happy)

كان أشد حيرة من الولد الذى سأله . قد تكون القاعدة ـ أى قاعدة ـ صحيحة لغويا ، فعلماء اللغة لا يجيدون ـ مثل كثيرين ـ سوى الكلام الباهت . أما الحياة .. الدنيا ، فلها منطق خاص ، خاص جدا .. وربما .. خاص جدا جدا . !! تذكر أنه مرت عليه ثلاث ليال وأربعة أيام لم يكلم الناس إلا رمزا . لا يعرف لم أمسى كذلك .. وهكذا . ؟! هل نسيه أصدقاؤه وزملاؤه أم هو الذى .. ؟! سهل أن تنسى الناس .. وتنسى أى شىء .. أى شىء ، لكن هل تنسى ذاكرة الجماعة بنفس القدر من السهولة ؟!!

أحس أن رأسه المرهق لا يتحمل مثل هذه الأوهام الميتافيزيقية . هناك حقيقة مؤكدة الآن : ذلك المظروف الذى سّهل له مهمة الدخول إلى الحمام ، من أين جاء ؟! لا بد أنه من واحد من البشر ، الذين يتهمهم ـ بينه وبين نفسه ـ بالعقوق والنسيان . تأمل

المظروف وقد ذابت معالم الكتابة عليه فى مياه الحمام . لا بأس ، سوف يدله الطابع . أوه .. الطابع نزعه ساعى البريد ، أو فراش حجرة المدرسين ، أو أحد التلاميذ ، أو .. !! لكن لم لا يبحث عن الرسالة نفسها .. لم يشغل نفسه بالشكل وينسى المضمون .. والجوهر ؟! بحث تحت الوسادة .. بجوار السرير .. تحت السرير .. فى المطبخ .. فى الحمام .. فوق المنضدة العرجاء .. فى ثنايا الكتب المهملة . لا .. لا .. لا فائدة . التقط أنفاسه المضطربة ، وتأمل شبحه فى مرآة صدئة . اتكأ على الوسادة ولام نفسه على ذلك التفاؤل الذى أطلق له العنان . لم لا تكون الرسالة من أحد الدائنين .. أو إدارة الماء والكهرباء .. أو إدارة الضرب والضرائب .. أو على أحسن تقدير من المكتبة التى استعار منها بعض كتب ، ولم يردها حتى الآن ؟ حمد الله فى سره ، وتناسى فكرة الرسالة التى ظن أنها ربما جاءته فى يوم ما .. من شخص ما أو من جهة ما . إن له أصدقاء مهما تناساهم أو تناسوه ، فلابد أن يعود لهم .. ويعودوا له فى يوم ما .. فى شهر ما .. فى عام ما .. المهم أن تسنح فرصة .

استراح لفكرة المصالحة المتوهمة بينه وبين أصدقائه ، وقال فى نفسه لم لا يستمتع بالموسيقى .. الموسيقى لغة الروح ،

الموسيقى سوف تجعله أكثر استرخاء ، وقدرة على التأمل . عالج مفتاح الترانزستور بخفة وحكمة ، فهو يملك جهازا أثريا ، لا يوجد عند أىّ من بائعى الأنتيكات . أخذ يقلّب المؤشر هنا وهناك ..

فى الليـــــل لما خِلى   إلاّ مــــن البَاكِـــــى
والنـــوح على الـــدُّوح حِلى   للصارخ   الشاكـــــى
مـــا تعـــرف المبـــتلى   فى الـــروض مـــن الحاكـــى

* * *

سكـــون ووحشه وظلمـــهْ   وليـــل مالـــوش آخِـــرْ
ونجمـــة مـــالتْ ونجمـــه   حلـــفت مـــا   تتاخِـــر
دا النـــوم ياليـــل نعمـــه   يحلـــم بها الساهـــــر

* * *

أسكت الجهاز الأثرى بحركة عصبية ، وعاد إلى قلقه وأوجاعه . كان القلق مسيطراً عليه بشكل مستبدّ . قلق فى قلق .. متى .. ولم .. وكيف .. ولماذا .. ؟! لا يدرى .. لا يدرى .. !! جذب انتباهه حركة صرصار ظهر بين كومة من الصحف . إنه حريص على شراء الصحف وقراءتها . قد يمرّ يوم أو يومان أو ثلاثة أو ربما أسبوع لا يقرأ شيئا .. لكن العودة ــ يوميا ــ بجريدة عادة لم تنقطع منذ .. منذ متى ؟ .. لا

يدرى . ما أتعس من يجد شيئا يقرؤه فلا يفعل . القراءة فعل ، وأنت إذْ تقرأ فاعل . لو كان شكسبير حيًا لقال : (To read or not to read, that is the question) . أشعل السيجارة — سميره الوحدة وطيف القلق . أخذ نفسا عميقا وانتشى . تذكر أنه لم يقرأ الصحف منذ عشرة أيام وتسع ليال . أخذ يستعرض العناوين لعلّه يجد موضوعا يشده :

اختطاف طائرة ركاب مصرية وتغيير مسارها إلى مالطة — ليس هناك أمل فى تخفيف حدة التوتر بين روسيا وأمريكا بعد لقاء القمة — رئيس فرنسا آخر من يعلم خبر فضيحة إغراق سفينة السلام الأخضر — محاكمة جنرالات الديكتاتورية فى الأرجنتين — حرب الخليج بين العراق وإيران تدخل عامها السادس — اليابان تخترع تليفزيون للجيب — تعاظم الثورة فى جنوب أفريقيا ضد التفرقة العنصرية — النجمة بسبوسة الأمير ترفع أجرها فى السينما إلى خمسين ألف جنيه — اختراع سحرى للقضاء على حبّ الشباب فى شهر واحد — غداً لقاء القمة على كأس الدورى فى كرة القدم — زيادة عدد ضحايا الفيضانات فى فلاديلفيا — شاب قطرى يلف العالم فى طيارة خاصة ..

كان يقرأ عنوانا من كل جريدة ، ويقذف بها ، ويمسك أخرى .. إلى أن أحس بصداع ، والصداع بالإنجليزية معناه (Headache) . صداع هذه الأيام من نوع خاص ، تعجز دونه كل المسكّنات والمرطبات . آه .. آه يا زمن الصداع .. هذا الكون موبوء .. هذا الكون موبوء .. ولا بُرء .!! اعترته حالة من فقدان الوزن . أحس أن رأسه قد تفتت إلى أجزاء كأنها صارت ذرات متنافرة . عروق يافوخه تدق .. تدق ، كأنما موسيقى ديسكو صاخب وصوت بدائى خشن يغنّى (One Way ticket) . أخرج سيجارة فى لهفة ، ارتعشت يده . أشعل الكبريت مرة .. مرتين . آه لو كان يملك ولاّعة . عبست صفحتا الوجه وهو يبتلع الدخان ويطرده فى عصبية . ثلاثون سنة وسبع سنوات مرت دون جدوى كما ضاع كل .. كل ما كان يحلم به ، حتى عائشة التى كان يكتب فيها ولها شعرا بالعربية ونثرا بالإنجليزية ، تاهت فى مخزن تاجر غنى ، ومنزل به حفنة أطفال . رغم هذا فما زال يعلم تلاميذه مثلا أعرج يحتوى على قاعدة لغوية هو :

(Health is better than wealth)

كان يحلم أيضا بأن يعمل مذيعا — ليس فى الإذاعة فتلك موضة

قديمة ، وإنما فى التليفزيون ، فى البرامج الثقافية على وجه التحديد . لن تكون هناك أزمة ثقافة بعد أن يبثّ برنامجه الشهرى أو الأسبوعى . المثقف العظيم يستطيع أن يغير تاريخ أمة .. لا .. بل تاريخ البشرية . تمنى أن يؤلف كتاباً لا يُفلت من ذاكرة التاريخ مثل .. مثل .. مثل ماذا ؟ أه .. نعم ، مثل محاورات أفلاطون ، الشعر لأرسطو ، أمير ميكافلّى ، عقد روسّو الاجتماعى ، رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، مقدمة ابن خلدون .. أو على الأقل رواية مثل الكوميديا الإنسانية لبلزاك .. !! تمخّضت الأحلام فولدت مدرسا للغة الإنجليزية فى وزارة يدّعى أنها للتربية والتعليم . رضى بقروش الوظيفة لكن الجسد المعذب لا يكاد يجد حاجاته الضرورية . رفض كل أنواع الدروس الخصوصية بحجة أنها « دعارة علمية » . كثير من التلاميذ يحبونه ، غير أن القضية عنده قضية مبدأ . حاول المدرس الأول أن يستدرجه لزيارة البيت ورؤية ابنته العانس .. لكن الخوف من المجهول زاده إصراراً أو خوفا ، فأغلق باب الريح . حين مرت فى خاطره كلمة « الباب » ، بدرت منه التفاتة مباغتة إلى باب الغرفة . طرق شديد شقّ جدار الصمت والنجوى . من الطارق .. من الطارق فى هذه الساعة الرهيبة ؟ ماذا يريد .. وما شأنه ؟ لا يدرى

منذ متى يقيم هنا ، فى هذه الغرفة المعزولة فوق السطح ، لكن الذى يعلمه جيداً هو أنه لم يقم أية علاقة مع أى من الجيران . فمن ذلك الذى جاء إلى هنا .. إلى باب غرفته .. وكيف عرف أنه هنا .. ؟! ربما كانت هناك مشكلة ، أية مشكلة (Any problem) . النبى أوصى على الجار السابع .. وربما كان هذا الطارق هو الجار الأول .. أو الثانى .. أو ... إذن لم لا يتكلم .. لا ينطق .. أو حتى يصيح ويصرخ . ؟! لا صوت .. لا صياح . لكن الطرق يزداد ويشتد . أحس رعشة تسرى فى كل مفاصله . خوف .. خوف ، دائما خوف بالليل .. همٌّ .. همٌّ ، دائما همٌّ بالنهار . معيشة ضنك ، وقسمة جائرة .. !! يفتح أو لا يفتح .. لا يدرى ؟! ازداد إحساساً بالوحشة والوحدة .. من ..من هناك ؟ من الطارق .. ؟! لا أحد يرد . مرت لحظة صمت بطيئة .. ثقيلة ، خُيّل له فيها أن الطارق كفّ عن الطرق .. وتوقف عن الكلام . ذهبَ إلى الباب لكى يتأكد أن الترباس محكم . يا للعجب .. يالسخرية القدر . الباب مغلق دون قفل ، أخذ ينقل أطراف قدميه بهدوء حتى وصل إلى الباب . أرهف السمع . وضع أذنيه على الباب . لا صوت ، لا حركة . حمد الله فى سرّه ، وأخذ يستعيذ برب الناس من الوسواس

الخناس . تساءل فى سخرية وهو يحكم إغلاق الترباس : هل كان هناك طرق حقيقى على الباب أم لعلىّ خائف يُخيّل لى ؟! .

تمنى أن يفتح النافذة حتى يشم هواء نقيا ويطرد أشباح الأوهام . أحسن أنه مثل فأر ثورندايك ، فأثورنديك تعلم عن طريق المحاولة والخطأ ، وهو لا يدرى إن كان سيتعلم أم لا ؟ امتدتْ أمواج الوحشة واهتزت مشاعر القلق . أحس أنه رجل مع إيقاف التنفيذ . شدت عينيه الزائغتين صورة غلاف مجلة « النجوم » . ثقافة الفشار والفُستق ثقافة مسلية فى لحظات العبث والقلق . تأمل الصورة الفاتنة كأنما يراها لأول مرة . حملق وتأمل ، ثم حملق وانبهر . امتزجت فى أعماقه دغدغة اللذة المحبطة برعشة الخوف المكبوتة . قتلت دوافع الحب فى نفسه امرأة أحبها ، وهذه مجرد صورة تثير فى أعماقه دواعى الرغبة . تأمل الشعر المقصوص ، والوجه المرتوى ، والرقبة المرمرية ، والصدر الأعظم . نامت الصراصير ، وبقى هو . تخيّل ذلك الإنسان الذى يتحرك طوال النهار فى المدرسة وقد أمسى صرصارا . لم تزعجه الوساوس ، فليست تلك هى المرة الأولى التى يحس فيها بالأرق والقلق والكبت . تحولت كل الأمنيات الطيبة إلى وهم (Illusion) وعبث (Absurd) . طفق يتأمل صورة النجمة

الجميلة . أحلام عبثية وحبّ من ورق . هذا الكون موبــوء .. موبوء .. ليس هناك أمل .. أى أمل ، كأنما أصابه السرطان .. أو الأيدز ، حتى أمراض العصر أصبحت أمراضاً خرافية ، لم يسمع بها من قبل .. !! بدرت منه التفاتة إلى جريدة فى الركن مهملة ، ظهرت فيها صورة لبيروت وقد عمها الدمار والخراب والموت . كومة من الجثث القاتلة المقتولة تصرخ .. ولا مغيث . النادى الأهلى يستعد لكأس إفريقيا ـــ النجمة بسبوسة الأمير تصور فيلمها الجديد بين لندن وأثينا وعجمان . تخيّل شعلة تمثال الحرية وقد انطفأت فى مدينة واشنطن .. !!

القراءة سر أزمته المستعصية . والأوراق تسد عليه كل مسار . الصحــف (The newspapers) والكــتب (The books) مــلأت الحجرة بأكوام مكـدسة ، تسكنها الكلمــات والصراصير والنمل أحيانا . التراب الملبد أحال كومة الصحف والمجلات والكتب إلى ما يشبه قبر طفل صغير . تعجّب كيف يدفن طفلاً من لم ينجب بعدُ ؟! انتفض واقفاً كأنما أصابه مسّ من الشيطان . أخذ يلفّ فى مكانه ، ويتأمل الأوراق المتناثرة . جمع كل الصحف والمجلات والكتب ، تراب يُغطى وجهه دون أن يتلفت إليه . أخذ يصفها بجوار النافذة

كومة .. كومة ، دون ترتيب أو تنسيق . لم يكن يعنيه شيء سوى تنفيذ قراره الخطير . سوف ينظف الحجرة من الورق والتراب والصراصير ، ويطهّر رأسه من الأخبار الملعونة والمعارف المقلقة . أدرك أنه على حق حين اكتشف فردة الشبشب الضائعة .. مضى يواصل تنفيذ مشروعه الجرىء . سوف يترك نموذج هاملت (Hamlet) المتردد ، الشاك ، ويعيش عيشة زميله الشيخ عبد الباسط مدرس اللغة العربية ، الذى يعالج البرد بشربة العدس والأرز بالبصل الأخضر ، ولا يعرف الحبّ الأفلاطونى ، ولا يعترف إلا بالزواج مثنى .. وثلاث . وهو الآن شيخ قبيلة بحمد الله الذى لا يُحمد على مكروه سواه .

اتجه نحو النافذة . بدأ يحاول فتح الزجاج بهدوء حتى لا يشرخ صمت الظلام ، لا يدرى كم مرت من أيام وليال لم يفتح النافذة . أخذ يفك حبال الدوبارة التى ربط بها ضلفتىْ الشيش . دخل بعض هواء جديد إلى محيط الغرفة الراكد . فتح النافذة . تأمل الكون النائم . الكل نيام . هذه المدينة الصاخبة أمست لا حس .. لا حركة . البيوت كاسفة والمآذن آسفة . الظلام يصارع النور ، والهدوء يعانق الصمت . هدوء مثل صمت الموتى . كأنما الكون فى

جنازة . هناك شيء ذوى .. وانتهى .. ومات .. الفعل « مات » هنا ، يجب أن يكون فى زمن الماضى التام (Had died) . ترى ما هو ذلك العضو الذى مات فى جسد الكون ؟! دقّ قلبه دقات عنيفة مباغتة وهو ينقل بصره الزائغ بين الغرفة وتل الصحف .. والمدينة النائمة .. والأفق البعيد.شعور غريب وعجيب أحاط به من كل مكان . الكون تجمد .. الضوء تبدد .. الحرُّ تمدد.اشتدت الحرارة كأنما الكون نار تتلظى . ألسنة النار تحمل اللهب من الجهـات الأربع . الجو خانق ، الحر شديد . لـو تخف الحرارة .. ساعتها سوف تتحول حرارة اللهب إلى برد وسلام .. هاها .. سلام سلام .. هاها .. هاها !!

تماسك حتى لاتنسيه اللحظة العبثية ما هو مهيأ لتنفيذه ومستعد للقيام به . انحنى بصدره المرهق وظهره المتعب . حاول ــ رغم الحر الخانق ــ أن يحمل كومة الأوراق المبعثرة ، حبس أنفاسه وخيّل إليه للحظة أنه يملك قوة شمشون . هذه الأوراق الملعونة ، التى هى مصدر شقائه وسبب تعاسته ، يستطيع أن يحملها مرة واحدة ، ويقذف بها إلى الأرض الخراب . بعد ذلك .. بعد ذلك فقط سوف يستريح ويريح ، سوف يحيا كما يحيا أى كائن حىّ .. مجرد كائن حىّ

(Human being) . أحكم أصابعه كلها حول كومـة الأوراق . أخذ يستعد للمهمة الجليلة . استعاد إحكام أصابعه مرات عدة حتى يمسك بالأوراق كلها . أصابعه مُمسكة بالأطراف ، والجو يزداد حرارة ، وجسده يرتعش ، وقلبه يخفق بشدّة . عرق بارد يتصبب من كل أجزاء جسده . استجمع قواه المبعثرة . عندما كان يحاول أن يرفع قامته شيئا .. فشيئا .. شيئا .. فشيئا ، سقط منكبا على وجهه فوق كومة الأوراق ، وخرجت مجموعة صراصير من بين الأوراق ، تجوب أرجاء الغرفة ، بينما لا يزال الجو خانقا[١] ...!

---

(١) الدوحة ـ يناير ١٩٨٦ .
ـ نشرت فى مجلة « الأزمنة » ، باريس ، المجلد الثانى ، العدد (٧) . نوفمبر / ديسمير ١٩٨٧ .

الموت .. و .... الصدى

كل مرة أعود فيها إلى أرض الوطن تحتوينى مشاعر عارمة من الشوق والحنين ، ليس إلى الأهل والأحباب والأصدقاء فقط ، بل إلى البشر أجمعين .. وإلى كل حبة تراب .. وإلى كل نسمة هواء ، والقلب يطير فرحاً على أنغام أغنية قديمة :

على بلـدى المحبـوب ودِّينـى زاد وجْدى والبُعد كاوينى

لكنى فى هذه الرحلة المشؤومة تمنيت ألا أرى الوطـن ، وألا يرانى .. بل تمنيت الموت .. وتمنيت ألا أكون قد خُلقت بالمرة . عندما كنت شاباً أخضر العود كنت أردد دائماً : لو كان حب الوطن داء ، ما تمنيت منه شفاء . !! لم تقول هذا الآن يا صادق ؟! ما فائدة أن يكون لك وطن .. وأنت منفىّ عنه ؟! الوطن ليس فكرة رومانسية حالمة ، وإنما تـراب حقيقـى تنمـو فى طينـه البراعـم والأشجار ، وتُسقى بماء واحد .. هو ماء الوطن .. أو ماء الحياة .. وماء الحياة بذلة سم ناقع .. !! ماذا فعلت فى نفسى هذه الرحلة .. و لم أحس أنى أحمل جبلاً من الهم والغم والكرب العظيم ؟! يا خفىّ

الألطاف .. نجنى مما أخاف . الخوف شىء فظيع .. بشع ، لم أنا خائف ؟! أنا إنسان لذلك فأنا خائف . كل إنسان فى داخله قدر من الخوف يظهر عندما تنزل عليه حادثة أو كارثة.الإنسان — ذلك الكائن المغرور .. المتجبر — تجعله المصائب فأراً مذعورا . وحين تصير فأراً .. فماذا تستطيع أن تفعل مع الفيلة ؟! .

ازداد إحساسى بالخوف والحزن ، حين استدعانى مدير شركة بترول الكويت الوطنية ، وقال لى :

— أستاذ صادق .. أعرف أنك أقرب صديق لزميلنا المرحوم يحيى .

— رحمة الله عليه . لم يكن صديقاً .. وإنما أخاً لا يعوض . !!

كنت ذاهلاً عما حولى .. ولم أتبين شيئاً فى غرفة المكتب . لم أكن أدرى هل الرجل ينظر إلى وجهى الشاحب وهيئتى الحزينة ورباط العنق الأسود الذى أرتديه ، أم ماذا يفعل على وجه التحديد ؟ .. لكنه استطرد قائلا :

— اخترناك لتمثل الشركة فى نقل الجثمان والمشاركة فى العزاء.

صحتُ كأن مسماراً حارقاً يكوى أعصابى المفتتة :

— لا .. لا أستطيع . أرجوك .. لا أقدر . أرجو أن تختار

شخصاً غيرى . !!

أخذ الرجل يدارى حيرته ، وهو يرفع طرف الشال الأبيض عن كتفه ، ثم قال بصوت لا يخلو من نبرة حزن :

ــ أعرف أن المهمة شاقة ، لكنك أفضل من يقوم بها . ثم لا تنس أن زوجة الفقيد ستسافر أيضاً .

ترك مكانه خلف المكتب وجلس بجوارى قائلا :

ــ نقل الجثمان مسئولية .. ومرافقة الزوجة أمانة ، وأنت أصلح من يقوم بهما ، بحكم صلتك القوية بالمرحوم وأسرته . (صمت .. ثم أردف) لقد أجريت اتصالات مع المستشفى والمطار . غداً ترحل فى الصباح . قواك الله وعظّم أجرك .

أسقط فى يدى .. ولم أدر ماذا أقول .. فقد سدّ علىّ الطريق . ؟! إنه على حق فى كل ما قال ، لكنى ما زلت أرى أن المهمة شاقة .. شاقة جداً على نفسى . كيف أسير الآن مع يحيى جثة .. وطالما سرت معه حياً يتحرك ؟ سبع سنوات قضيناها معاً فى الكويت .. سبع سنوات بما فيها من حلو ومر .. وحيرة وقلق .. وغربة وعذاب . اقتربنا بدرجة صارت معها الأسرتان أسرة واحدة .. نأكل طعاماً واحداً .. وفاكهة واحدة .. حتى

الملابس .. والرحلات والزيارات والإجازات . دائماً نحن ، عائلة واحدة . رحمك الله يا يحيى .. كنت الصديق الذى أشركته فى أمرى وشددت به أزرى ، بل كنت الأخ الذى لم تلده أمى !! فى الغربة يمرض المرء دون علة ، ويحزن لغير ما سبب .. ويصير مجروح الفؤاد مكسور الخاطر ، يتوقع فى أية لحظة هماً يأتيه .. وينسيه .. كل ما هو فيه !! الحياة بلا صديق مخلص صحراء بلا دليل ، ويحيى كان الرفيق الذى داويت به جروح روحى عندما عزَّ الأساة . !!

شركة البترول التى نعمل فيها تشكل تجمعاً مثل تجمعات عمال التراحيل ، لكن العمال هنا مؤهلون بشهادات وخبرات مختلفة ، والعمل هو الرابطة الوحيدة . أحياناً يشغلنا العمل فقد جاء الجميع ليعملوا ، ويأخذوا على عملهم أجراً عالياً جداً .. وأحيانا تحركنا صراعات شعوبية ، لا معنى لها ولا فائدة منها . الدنيا يا يحيى .. صراع وعذاب واغتراب . الحياة فرصة .. والأبناء مشكلة .. والفقر مصيبة . لكن لماذا مت يا صديقى وقد أسموك يحيى ؟! يحيى مات .. تلك هى القضية ، مات بغير مرض ، ودون سابق إنذار . فى الأربعين رحل قبل الأوان . الأشجار حين تُنتزع من تربتها تسقط واقفة . رحمة الله عليك يا يحيى ، فأنت شهيد من نوع جديد !!

فى الطائرة جلستْ بجوارى زوجة المرحوم ودموعها لا تتوقف .. وأنينها لا يكاد يجفّ . كنت أختلس النظر إليها بين الحين والحين لأقول كلمة عزاء ، لكن اللسان عصانى . ماتت الكلمـات فى حلقى . كيف يكون القلب زاخراً بالأحزان إلى درجة الفيضان ، واللسان عاجز .. حيران ؟! السكوت فى بعض المواقف أفصح من أى كلام . حجة واهية أو حقيقية .. لا أدرى . لكنها حجة والسلام . ابتلعت ريقى ، وتأملت ركاب الطائرة . ليس هناك من يعـرف مصيبة هذه الأرملة المسكينة .. أو مصيبتى أنا .. أنا المفجوع فى موت صديقه المفاجئ.طيراناً تطير الطائرة فى عالم لا يعرف مداه سوى علام الغيوب .. ومفرج الكروب .

المتناقضات كلها تحدث فى لحظة واحدة : أكل .. شرب .. نوم .. زيارة دورة المياه . المضيفة الحسناء تبيع العطر والويسكى وأربطة العنق . أحسست برغبة فى التدخين حين نقل إلىّ العدوى رجل أسمر نحيل يجلس قريباً منّى ، دخان السيجارة يتلوى .. ثم يضيع هباء ويختفى ، كأنه ما كان . أخذت أكرر المحاولة .. وأعاود الفكرة . مع دخان السيجارة هيّئ لى أن الطائرة مثل سفينة نوح . نوح يا أيها النبى الكريم تلك هى السفينة .. فهل الطوفان قادم .. هل

الطوفان قادم .. ؟!!

ليلتيْن لم أنمْ ! . بين الصحو والسكر ، أحسست رعشة تسرى فى جسدى من الرأس إلى القدم ، حين تذكرت الصندوق ، الذى يحمل جثة العزيز الراحل وسط الأمتعة والحقائب والطرود . رحمة الله عليك يايحيى .. منذ أسبوع واحد فقط كنت سليماً معافى ، لو حدث السفر يومها لكنت معنا الآن هنا بين الأحياء . هذه هى الحياة يا صديقى نفَس فى الصدر يخرج ثم لا يعود .. ونبضة فى القلب تتحرك ثم تتوقف . الإنسان كائن ضعيف ، والحياة وهم سخيف . ألا ترى ذلك معى الآن يا صديقى .. حاول أن تقول شيئاً .. فأنت فى دار الحق ، ونحن فى عالم الزيف . لم لاتكلمنى كما كنت يا يحيى . كان حديثك العاقل يجيب عن كثير من تساؤلاتى ويسكت بعض مخاوفى . تكلم يا يحيى .. سوف أحفظ سرك فأنت تعلم أنى لست ثرثاراً .. أو ممن يحرفون القول .. أو يتاجرون بالكلام . آه .. يا يحيى لو علمت الغيب أكنت تختار هذه الميتة ؟! كم يساوى وجودك الآن فى غرفة العفش ؟! أشهد أن الموت حق ، وأن يحيى لو نطق لقال : إن كنوز قارون لا تعدل هذه الميتة . غريباً على أرضك تكون فإلى غربة أشد على أرض الآخرين تصير .. !!

صدقت أيها الصديق الأمين ، فالغربة قدر الإنسان اليوم . الإنسان يبيع نفسه لمن يدفع أكثر .. !!

أيقظنى من شطحاتى صوت قائد الطائرة يعلن وصولنا إلى مطار القاهرة . هل طالت المسافة أم قصرت ؟ لست أدرى ، خاصة أنى نظرت فى يدى فلم أجد الساعة ، يبدو أنى نسيتها ونسيت أشياء أخرى .. ما هى .. لست أدرى ؟ .

أحسست — وأنا أنزل درجات سلم الطائرة ، وضوء الشمس يعشى ناظرى — أنى وجميع الركاب نهوى إلى مستنقع راكد ، كأنه حفرة من حفر الجحيم . تعثرت قدماى .. وكدت أسقط على وجهى لولا الزحام . استعذت بالله العلى العظيم ، من وساوس الشيطان الرجيم .. ومشيت على أرض المطار .. لكن تراب الوطن لم يهز كيانى كما هزه كل مرة من قبل . من الذى تغير .. أنا أم هو .. هو أم أنا .. ؟ لست أدرى .. لست أدرى ! شىء ما خطأ .. هناك شىء ما خطأ .. ما هو .. لست أدرى .. ومن قال لا أدرى فقد لا يدرى .. !!

توجهت مع لميس زوجة صديقى إلى غرفة الحجر الصحى . لميس فى ملابسها السوداء مثل إيزيس ، رغم الحزن والأنين كانت تحاول أن

تبدو صامدة .. صابرة ، لكن الدموع فى عينيها لا تتوقف . جالت بفكرى المرهق خاطرة غريبة : حين يموت أحد الزوجين قبل الآخر ترى من يكون منهما أكثر حزناً على رفيقه .. أهو الرجل أم المرأة ؟! الحزن الغائر فى أعماق لميس جعلنى أقرر أن المرأة أكثر حزناً من الرجل . الرجل كل حياة المرأة ومحور وجودها . المرأة تتخلى عن كل شىء فى الحياة إذا ظفرت برجل .. إنها بدونه خيمة بلا عماد ، أو بيت بلا سقف . أما الرجل فلا أظنه يحزن مثل حزن المرأة .. هل هذه حقيقة أم خرافة ؟ لست أدرى .. ولا أريد أن أدرى !!

ذهبنا لاستلام الصندوق ، حين رأته المسكينة صرخت صرخة ، خلت أن روحها طلعت معها .. أخذت تنظر إلى ، كأنما تندب زوجها بصوت حزين :

بعيـــــد حـــــداك   خلــيك بعيــد حــداك
بعيـــــد حـــــداك   فكرتنــى بمشيتــه ويــاك
آه يا حبيبى ى ى ى ى ى   يا مصيبتى ى ى ى ى ى

تركتها وحيدة تبكى ، فلم أعد قادراً على تحمل مزيد مــن الأحزان ، ثم إنه كان علىّ أن أتماسك ، حتى أتابع الإجــراءات

الرسمية ، إذ لا بد أن يفتحوا الصندوق ، وأن يتأكدوا أنها جثة المرحوم دون سواه .. وأن الصندوق ليس به شيء آخـر سوى الجثة .. ربما كان مع الجثة شيء آخر . حاولت أن أتفاهم .. لكن بلا فائدة . القانون حمار ومن يطبقه بغل . مرت المهمة الرسمية بطيئة ثقيلة . بعد استلام الصندوق ظهر جماعة من الشيالين ، لا أعرف من أين جاءوا ، أخذوا يتزاحمون حول الصندوق طمعاً فى إثبـات الأجر ، وأخذ البقشيش . سار فى المقدمة رجل ضخم مترهل ، يبدو أنه رئيسهم . حملوا الصندوق دون استئذان ، وصاحوا فى صوت واحد « يا دايم هو الدايم .. ولا دايم غير الله » .. بينما كانوا يتزاحمون ويصيحون زعق الرجل الضخم : « وحدوه .. كل من عليها فان .. يا دايم هو الدايم .. ولا دايم غير الله » . ثم اقترب منّى فى تودد مصطنع وهمس :

ـــ هل توجد عربة فى الانتظار أم أحضر لك واحدة ؟

ـــ أهل المرحوم فى الانتظار .

ـــ على كل .. أيتها خدمة يا سعادة البيه .. البقية فى حياتك ، أرجو أن تكون كريماً مع الرجال .

لو كنت فى حالة طبيعية لضربته ومسحت به الأرض. نظرت إليه

فى ازدراء شديد ، وصحت فيه :

ـ استح يا رجل ، إنهم يحملون جثة ميت ، وليس تليفزيون أو ثلاجة . !!

أجاب ببرود : كله رحمة ونور يا أستاذ ، أى والله ، رحمة ونور من أجل المرحوم . الفاتحة على روحه .

الكون فى جنازة .. هذا ما أحسست به عند الخروج من بوابة المطار . تقدم نحونا الأهل والأصدقاء والجيران فى حزن وأسى . مشى الرجال وأنا معهم أمام الصندوق فى صمت حزين ، وقد علت الوجوه حيرة وحسرة . مشت النساء خلف الصندوق معولات صارخات باكيات نادبات . استطعت أن أميز بين الأصوات المجروحة صوت أمه الثكلى . عندما رأت الصندوق ازداد صراخها ، وحين شاهدت زوجة الفقيد طال وامتد نواحها : يا دهويتى ى ى ى ى .. يا ميّت غريب يا حبيبى ى ى ى ى ..

يـــا شاب يـــا زيـــن　　يـــا زيـــن الشبـــاب
أمك تقـــــــــولّك　　ليـــه طـــولت الغيـــاب
آهين يـــا ولـــدى ى ى　　آهين يا كبدى ى ى ى ى

تقطع القلب الذائب حسرات ، وأنا أسمع نحيب الأم الثكلى ،

وصوت صراخها يشق جدار الأفق . لماذا المصريون ــ أكثر شعوب الأرض قاطبة حزناً على الميت .. وقد بنوا منذ عصور الفراعنة للموتى أهرامات ومعابد .. وهم حتى اليوم يدفنون الصالحين والعظماء فى المساجد .. ولا يزال جزء كبير من مدينة القاهرة تشغله المقابر ؟! يبدو أننا لا نعرف قدر كثير من الناس وقيمتهم فى الحياة إلا بعد أن يموتوا .. هل هذا صحيح يا صادق .. ؟! لست أدرى .. !! خيل إلىّ أن الموجودين فى المطار يسيرون معنا ، يؤدون مراسم الجنازة ، حتى يصل الصندوق إلى العربة التى تنتظره ، لتحمله إلى مقره الأخير . لكن لماذا يسير كل هؤلاء الغرباء معنا ؟ أنا أعرف سر حزنى .. وسبب مصيبتى .. لكن ما سر حزن أولئك الآخرين ؟! هل ما أتخيله وهماً أم حقيقة ؟! لست أدرى .. لست أدرى !!

كلما حاولت أن أغوص داخل ذاتى ، وأسبح فى بحر أحزانى وتأملاتى ، أيقظنى صوت الأم المجروح . « أيتها الأم الثكلى هذا ابنك العزيز الغالى يعود إليك .. إلى أبد الآبدين ، يعود بعد أن كافح وصارع ، وتعلم وتألم .. دون أن يتكلم . !

أيتها الأم الحزينة استردى الوديعة التى غابت عنك سنين عدداً ، فقد شرق وغرب .. وعمّر وخرب .. لكنه عاد .. عاد فى النهاية

إليك وحدك ، ولن يرجع مرة أخرى . أكرمى مثواه تحت التراب ، بعد أن فرطت فى حقه وهو فوق التراب .. وكان مثل المسيح يحمل فى المنفى صليبه .. !!

أيتها الأم المسكينة عندما تدفنين ولدك ، عمّقى الحفر ، ووسّعى القبر ، كى يتسع لصناديق أخرى .. فى الطريق إليك ... !! »[1] .

(١) ميلانو — إيطاليا .. أغسطس ١٩٨٧

— نشرت فى مجلة « أخبار الأسبوع » — قطر — العدد (٨٣) ٥ ديسمبر ١٩٨٧ — جريدة « الشرق » القطرية فى ٣ — ٥ — ١٩٨٨ — مجلة « القاهرة » المصرية فى ١٥ — ٢ — ١٩٨٩ .

المواجهة

يومان وثلاث ليال مرت عليه ، وهو على هذه الحالة من العزلة والوحدة والسهد والأرق . كيف يهدأ القلب والفكر مشتت ، والمزاج متعكر ؟ نسى أن له أعضاء تتحرك .. فهو لا يخرج .. ولا يفعل شيئاً .. أى شىء ، فقط أصبح مجرد رأس مشحون بالأفكار . صار محدد الإقامة ، وهذا قرار اتخذه بمحض إرادته . حرّم على نفسه كل شىء إلى أن يصل إلى قرار .. أو إلى حلّ مقنع للموضوع ، مؤمناً بحكمة تقول : « لا تؤجل مشكلة اليوم إلى الغد » . صحيح أن بعض المشكلات يحلها الزمن ، وبعض الحقوق تسقط بمضىّ الوقت . لكن هذه القضية — كما بدت له — من نوع خاص .. خاص جداً . ليست هذه أول مرة يواجه مشكلة .. فهو فى رأى كثير من إخوته وزملائه فى العمل « رجل المواقف الصعبة » . المأساة أن تكون قادراً على حل مشكلات الغير ، وتعجز عن أن تحل مشاكلك الخاصة . لكن هذه ليست مشكلته وحده . إن المشكلة صنعها إخوته ، وطلبوا منه أن يخرج منها برأى محدد .. هذا الرأى

يجب أن يكون هو الرأى الأخير ، ولا رأى غيره .. يعنى حوار ديمقراطى .. ونتيجة ديكتاتورية . !!

أنعم البصر فى الحجرة التى حبس نفسه فيها ليومين وثلاث ليال . كل ما فيها قد ضاعت هيبته ، فالأشياء تفقد — دائماً — وجودها الحى وتأثيرها المدهش بالمعاشرة والتعود . لفت انتباهه ذلك الدولاب الكبير ، الذى يبدو صامداً صامتاً ، لكنه من الداخل يعيش حالة فوضى شاملة ، لا تكاد تجد فيه مكاناً محدداً لشىء معين ، لأن مملكة الأسرة غير المتحدة صارت ضد النظام ، اختلطت أماكن الملابس الداخلية بالخارجية ، وصار درج الجوارب أشد الأماكن فوضى ، بحيث يصعب أن تجد زوجين متشابهين بسهولة . ضاعت معظم المفاتيح و لم يعد يغنى حذر من قدر ، حتى أبواب الدولاب صارت تغلق بصعوبة بالغة .. لكنه مع ذلك ضخم مهيب ، يملأ عرض الحجرة من اليمين إلى اليسار .. !!

تطلع مرة أخرى إلى سرير الزوجية السعيد ، محاولاً أن يتذكر كم سنة مرت عليه ، وهو ينعم بهذه الحياة الزوجية الرغدة .. فلم يدر .. ولا يظن أن السرير أو الدولاب أحدهما أو كليهما يدرى ؟! المهم أن الحياة تمضى .. والأمور تسير . نظر من بعيد إلى مرآة تعكس

ضوءاً خافتاً ، فكاد .. كاد يتوه عن نفسه . لا فائدة .. كل هذه محاولات للهروب من المشكلة .. ولن يجد أية راحة إلا إذا وجد حلاً . يبدو له — أحياناً — أنه لن يجد نفسه إلا إذا وجد الحل . لا تتعب نفسك يا عصام .. كل مشكلة لها حل . لكن المشكلة عويصة ، سامحكم الله يا إخوتى ، دائماً تخدعونى بأنى الأخ الطيب .. وتطلبون مقابل هذه الطيبة أن أفعل كل ما تريدون . وأقول كل ما ترغبون . لقد صدّق إخوته فى كثير من الأمور ، وقال وفعل ما يريدون ، لكن هذه القضية الطارئة ، تبدو له صعبة الحل .. !!

أشعل فى الضوء الخافت سيجارة ، وأخذ يحرك رأسه مع أمواج الدخان المتتابعة . أحس قدرا من الرهبة حين تأمل المشكلة فى هدوء . لا ، الأمر ليس مجرد مشكلة .. هوّن عليك يا عصام الأمر بسيط . أختى تريد أن تتزوج .. فى الحقيقة جاءها عريس .. سأقول لها كل إخوتك — وأنا معهم — نرفض ذلك .. ولا نقبله . ونريد الرفض أن يأتى منك ، حتى لا نقع فى حرج مع الرجل . كان يعرف أن أخته سكينة أمرأة عاقلة ، بل عاقلة جداً جداً . إنها تضم الإخوة الذكور فى حنان إلى بيت الأسرة ، وتعطيه — حين يجتمعون فى

الأعياد والمواسم — نكهة خاصة . إن خروج سكينة يهدد رباط الأسرة بالتفكك والانهيار . يحل المشكلة إذن أن ينادى — وهو فى مكانه : تعالى يا سكينة . سوف تأتى بأدبها المعهود رغم أنها أكبر منه سناً ، وتسمع كل ما يقول .. ولن تناقشه فى أى شىء بالمرة . لا بد أن يحدثها الآن ، لأن الإخوة — سامحهم الله .. وسامحه — حددوا مساء الغد ، موعداً لأخذ الرد . انتبه فجأة على عقب سيجارة يحرق إصبعيه . قذف بالعقب فى المطفأة ، وقد أدرك أنه لم يكد يتناول من السيجارة سوى أنفاس معدودة .

أخذ يستعيد المشكلة فى رأسه مرات .. ومرات . ما زال مصراً على أن يفكر بهدوء .. لأن شيئاً ما فى هذه القضية لا يريحه . سكينة الأخت الكبرى ، لها منزلة خاصة . حين ماتت الأم بعد وفاة زوج سكينة بعامين — رحم الله الجميع — جاءت بابنها الوحيد « وليد » وعاشت معنا .. وقامت بدور الأم لنا جميعاً . كانت تعطى .. وتعمل .. ولا تطلب شيئاً لها .. أو لابنها . كل الإخوة تزوجوا ورحلوا عن البيت .. وبقيت فيه أنا وهى . سكينة على مشارف الأربعين ، لكنها لا تزال شابة .. حلوة .. مرغوبا فيها . إن زواجها لم يدم أكثر من خمس سنوات . الرجل الذى جاء يطلب يدها أحد

أقرباء زوجها المرحوم . العجيب أن سكينة سمعت الخبر .. ولم تعلق . سكتت ـــ أدباً منها ـــ وتركت لإخوتها مسئولية اتخاذ القرار . يقولون إن السكوت فى مثل هذه المواقف علامة رضا وقبول .. غير أن الإخوة كلهم مصرون على الرفض ، ويرون فى صمتها المؤدب حجة تقوى رأيهم وتؤيد رفضهم . كيف تتزوج سكينة بعد خمسة عشر عاماً من وفاة زوجها ؟ فى الحقيقة .. كيف تتزوج سكينة بنت الحسب والنسب ـــ فى رأيهم ـــ من هذا الفقير المسكين ؟!

حاول أن يجد مبرراً لرفض الإخوة .. وصمت سكينة فلم يجد !! لكنه استطاع أخيراً أن يقنع نفسه أن القضية قضية سكينة وعليه ألا يعبأ بكلام إخوته أو تهديداتهم . يجب أن يتأمل القضية من زاوية الرؤية الصحيحة ، وهى أن يتفهم موقف صاحب المصلحة الحقيقية . سكينة على الرغم من كونها أخته ، إلا أنها امرأة مثل كل النساء ، ومن حقها أن تتزوج .. وأن يكون لها بيت .. وحياة خاصة . إن الرجل الذى تقدم لها موظف بسيط ، لكنه طيب ومن أقارب المرحوم ، وعلى هذا فإن ابنها قد يجد فيه صورة لأب حرم منه إلى الأبد . حقاً إن الأب الحقيقى لا يعوض ، غير أن إرادة الله الحكيمة

شاءت أن تهب هذا الصبى اليتيم بديلاً صالحا عن أبيه .

اعتدل فى جلسته ، ومدَّ قدميه على السرير ، وبدأ يحس قدرا من الرضا . إن سكينة لن ترتكب إثماً . إنها تريد أن تتزوج .. أو على وجه التحديد جاءها زوج . والزواج أمر شرعى وقانونى . إنهم جميعاً متزوجون .. فلم يحرمون على سكينة ما أحلوه لأنفسهم ؟! لماذا كل النساء فى حاجة إلى رجل إلا أختهم .. هل خلقت من طينة خاصة غير كل نساء الأرض ؟! لا شك أن كثيراً من الرجال مغرورون — أو مغفلون على الأقل — لأنهم يظنون أن كل نساء العالمين بغايا إلا أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وزوجاتهم . أدرك أن بعض القضايا تصبح ذات بُعد خاص إذا اتصلت بنا نحن فقط .. وهذا ما زاده حيرة فى أمر إخوته وأمر سكينة ؟!

الصداع مازال ممسكاً برأسه . لم يعد قادراً على أن يشرب مزيداً من الشاى أو القهوة . ابتلع بصعوبة شربة ماء ، حتى يطهر فمه من لزوجة التبغ . عاد إلى قضية سكينة .. لا .. إنها الآن قضيته هو . لماذا لا ينادى عليها ويتفاهمان بهدوء ، قبل أن يأتى الإخوة ، الذين قد يعالجون الأمر بطريقة عصبية ، تفتح جرحاً فى نفس إنسانة عزيزة عليهم . إنهم جميعاً يحبونها كما يدعون .. لكن المرء فى لحظات كثيرة

قد يقتل أو يُقتل باسم الحب !!

تأمل أكرة الباب فى هدوء ، وقرر لأول مرة ألا يكون مخلب قط . ما فائدة أن يكون طيباً فى رأيهم ويصير فى اللحظة ذاتها ظالماً فى نظر سكينة . ومن يدرى إذا فاتتها هذه الفرصة فهل يطرق رجل آخر بابها من جديد ؟!

أحس أنه لم يعد فى حاجة إلى الضوء ، فأطفأ النور وتمدد على السرير ، وآثر أن يواصل تفكيره . راودته خاطرة حزينة حين أدرك أن زوجته أصرت أن تذهب إلى أمها المريضة حتى تشفى . إن امرأة يعاشرها منذ عشر سنوات وأنجب منها ثلاثة أطفال لا تزال إلى اليوم تصر على أن تفعل ما تريد .. سواء رضى أم أبى !! وهذه أخته المسكينة التى ألفها منذ أربعين سنة ، لا تقول ولا تفعل إلا ما يريد هو وإخوته .

ذكرته مشكلة سكينة بموقف متأزم ، حدث منذ أيام حين التقى بالمهندس أثناء العمل ، وقال له إن الإدارة قد تضطر ابتداء من الشهر القادم إلى إلغاء مكافأة الأجر الإضافى ، سأله — متعجباً — عن السبب ، فبرر ذلك بكثرة الخسائر التى يصاب بها المصنع . فرد عليه مستنكراً :

ــ لكن المصنع لم تحدث فيه هذه الخسائر منذ أنشىء .

ــ هذه معلومات جديدة .. أردت أن أقولها لك .

ــ و لم أنا على وجه التحديد ؟

ــ لأن أعضاء النقابة يثقون بك يا عصام .

ــ على كل حال .. أنا لم أتلق شيئاً بشكل رسمى ، لذلك سأنسى أنك حدثتنى فى الموضوع .

ترك المهندس وقد ضاعت ملامحه ، وسط أصوات ماكينات مصنع الغزل والنسيج . لا يدرى ما الذى ذكره بهذا الموقف ؟ إيه يا سكينة .. إن كثيراً من الناس صاروا مثل فئران المراكب .. لا يا أختى لن أكون السكين الذى يذبح آمالك ، ويدفن ما تبقى من زهرة شبابك .. !!

أحس قدرا من الرضا والراحة . أدرك أن الإنسان حين يحل مشكلة فى حياته ، فإنه يصبح قادراً على أن يحل كل المشكلات . قام من فوره ، وذهب إلى الصالة. فى الحقيقة تمنى أن يقابل سكينة مصادفة ، وأن يناقشها مناقشة الأخ للأخت . تمنى أن يرى فى هذه اللحظة أثر القرار السعيد على وجهها البرئ ، لكنه لم يجد لها أثراً ، كأنما ابتلعتها الأرض هى وابنها . لا حس ولا حركة . هل نامت ؟ ..

كيف تنام فى هذا الوقت المبكر ؟ حاول أن ينظر فى الصالة .. أو المطبخ .. أو حتى حجرتها .. لكنه لم ير أثراً على الإطلاق . خطر بفكره هاجس مخيف .. هل يمكن أن تكون سكينة قد أحست بشكل أو بآخر أن إخوتها سوف يرفضون ، فقررت أن تذهب إلى الرجل بنفسها . لكن سكينة أخته وهو يعرفها جيداً . سكينة لا تعمل هذا .. إنها امرأة عاقلة .. وهل للمظلوم عقل ؟ إن المظلوم حين يستشعر الظلم قد يفعل أى شىء .. المهم أن يحاول دفع الظلم عن نفسه . عصف بفكره الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس . ستكون شماتة إخوته لا حد لها !! لكن .. ربما .. مستحيل .. لا فائدة .. لا بد أن يتأكد .. !! إن زوجته وأطفاله غائبون عن البيت ، وهو محبوس فى الحجرة ، والظروف ملائمة لهروب سكينة .. وهو الذى هيأ لها الفرصة . مضى يؤخر رجلاً ويقدم أخرى .. إلى أن وصل . فتح الباب بهدوء خشية أن تحس به — إن كانت موجودة . لم تكن تلك عادته معها إطلاقاً .. إذ لم يفتح الباب عليها مطلقاً بعد أن يغُلق . على ضوء باهت ينبعث من الصالة لمحها ترقد فى صمت الملائكة محتضنة ولدها . ابتلع — وهو واقف يترقب — شهيقاً طويلاً عريضاً ، أعاد إليه الروح التى

هربت . حمد الله فى سره ، وتمنى أن يسعد الله سكينة وأن يوفقها .

عاد إلى غرفته . أشعل ضوء الغرفة ، وأخذ يتأملها ، كأنما يكتشفها من جديد قطعة .. قطعة .. رغم التعب الشديد لم يجد فى نفسه حاجة إلى النوم . حاول أن يتذكر طيف سكينة فظهر أمامه شبح المهندس بكرشه المترهل ، كأنما ابتلع الماكينة التى يعمل عليها . تخيل نفسه يقف أمام أعضاء النقابة يكشف لهم أسباب الخسارة المفاجئة التى حلت بالمصنع . فتح شباك الحجرة فإذا هواء منعش جديد ، وضوء الفجر يتنفس من بعيد ... !![1]

---

(١) الدوحة .. نوفمبر ١٩٨٦ .

ــ نشرت فى مجلة « الجامعية » ، جامعة قطر ــ مايو ١٩٨٧ .. وفى جريدة « سيناء» عدد مارس ١٩٩٠ .

(دائرة اللهب)

بقايا امرأة

أحستْ أن الرياح تهبُّ من الجهات الأربع ، النار تشتعل فى كل الشرايين . الوساوس تكاد تذبحها . تراخت على السرير مثل مومياء فرعونية : شاحبة اللـون ، هشة الأعضاء . تمنت أن تصرخ .. تستغيث .. تصيح .. تنادى . اللسان معقود والصوت أخرس . إذا صاحت فعلى من تنادى .. وماذا تقول ؟ من يسمع صراخ امرأة مقهورة ، سلمت رأسها لأهلها فذبحوها .. دون ثمن . !!

فاطمة الرقيقة البريئة رأسها يكاد ينفجر . القلب يغلى مرارة وأسى . الجسد بارد مشلول . الهم عندما يسيطر يجعل الدنيـا سوداء ، لا ترى فيها أى ثقب من رجاء . أمطار الحزن تعصف .. وتهزّ .. وتدمر كيانها ، الذى عاش خمسة وعشرين عاماً حياة فارغة من كل معنى . أحست أنها تحمل عبئا ، لم تحمله أنثى من قبل . لم خلقها الله أنثى ؟! « المرأة مصطبة الذل » ، ليس الذل وحده يا جدة مبروكة ، المرأة مصطبة الذل والعجز والخيبة . ! يبدو أن لعنـة « حواء » ـــ منذ أخرجت « آدم » من الفردوس ـــ لا تزال سارية

المفعول . يارب .. لم تصبُّ اللعنة على المجنى عليها ولـيس على الجانى ، أو على أمه التى لم تحسن تربيته ؟ وراء كل نذل امـرأة مستهترة !! تمنت أن تكون رجلاً ليوم واحد طوله ألف سنة ، حتى تتعقّب الأنذال فى كل مكان ، وتريح العالم من قذارتهم .. !!

أيقظتها من الأوهام والأحلام طفلتها الصغيرة ، حين أبعـدت الغطاء عن ساقيها . نظرت إليها بطرفىْ عينيها ، وهى تعيد الغطاء فى أسى وحسرة . رمز الخيبة والغدر يا ابنتى . المأساة حلت بها منذ ثلاث سنوات ، ولم تزل الواقعة محفورة فى الذاكرة .

ــ تعالىْ يا فاطمة ، جاءك عريس .

ــ لم لا تكلم أباك ؟

ــ يريد أن تأتى الموافقة منك أنت .

ــ لماذا يا أخى ؟

ــ إن ظروفنا صعبة بعد أن أحيل أبوك إلى التقاعد .

ــ ما علاقة هذا بزواجى ؟

ــ هذا هو السبب يا أختى ، فالعريس لن يطلب منا أى شىء .

ــ كيف ؟

ــ إنه يعمل فى « أبو ظبى » ، وله بيت هناك ، وهو يريدك فقط .

ـــ هل تعرفه ؟

ـــ كان زميلى فى الثانوى . التقيت به صدفة . قال إنه حصل على بكالوريوس الهندسة ، ثم سافر للعمل .. والمال .. و .. والحياة المريحة . ليتنى أجد فرصة للسفر . !!

ـــ لكنى لم أره . !!

ـــ لقد زارنا أكثر من مرة عندما كنّا زملاء بل أصدقاء ، كنت وقتها صغيرة . وإذا .. وافقت (ابتلع ريقه ، حتى يستطيع مواصلة الحديث) يحضر غدا .

ـــ أعطنى فرصة لأفكّر .

ـــ نحن فى عصر السرعة يا أختى الطيبة . لم يبق من إجازته سوى خمسة أيام ، يريد فيها أن يخطب ، ويكتب الكتاب .

نظرت إليه فى ذهول وهو يحاول أن يتكلف الابتسام :

ـــ بعد انتهاء امتحانات الليسانس تسافرين إليه هناك .

ـــ هل هذه طريقة زواج ؟

رد بهدوء : أبوك موافق على الموضوع ، وأنا موافق على العريس .

صاحت كالمستغيثة : وأنا ؟!

ــ ألسنا نفعل كل هذا من أجلك يا فاطمة ؟!

أخذت تسبح فى غيبوبة القلق ومتاهة الذكريات . هذه الحجرة الضيقة ـــ التى عاصرت طفولتها الحزينة ، وصباها الذى لم تشعر به ـــ هى الآن شاهد لا يتكلم على مأساة تجترها كل ليلة ، وربما كل لحظة . خسرت كل شىء . النذل هرب . لا تعرف له مكانا على ظهر الأرض . لا تريده من أجل نفسها ، وإنما من أجل طفلة بريئة . قد تقدر هى على تحمل الجوع والعطش والعرى .. والذل ، لكن هذه الوليدة ما ذنبها ؟ القطة حين يضيق بها الحال تقتل صغارها . إذا ماتت استراحت منها .. ومن كل ما يذكّرها به . ليست ابنتى وحدى .. فلم أكون وحدى المسئولة عنها ؟ هذا الكون مصاب بسرطان فى رأسه ، نقلت إليه العدوى تلك الذئاب البشرية ، التى تنفث حقدا وغدرا .. !!

يوم نزلت من الطائرة فى مطار « أبو ظبى » أحست أن الجو خانق ورائحة اليود المنتشرة فى الجو تحول دون التنفس ، الرطوبة عالية وشبورة كثيفة تحيط بالغطاء الخارجى للأفق ، كأنه شتاء كاذب . الأرض تبخّ حرارة لاسعة . هُيىء لها أن الشمس عمودية على رأسها ، لو رفعت يدها لمستها . أصيبت عيناها بالعشى ، لم تعد

قادرة على الرؤية . خرجت من باب المطار ولزوجة العرق تطفح من خلايا جسدها . مضت فى ثيابها البيضاء المبللة بالعرق والقلق ، تبحث عن رجل لا تعرف ملامحه ، ولا تحس نحوه بأية عاطفة . لا تزال كلمات أب مسكين تتردد فى أذنيْها ، توصيها بالرضا والطاعة والحياة فى بحر لا تعرف له قرارا أو ضفافا . الفقر هو السبب وزواجى هو النتيجة . أحست أنها عروس جيدة التغليف ، معـروضة فى « سوبر ماركت » تباع بالدولار ، لمن استطاع إليه سبيلا .. !!

فى الطريق إلى المجهول كانت الصحراء تطل عليها من قريب ومن بعيد . السراب يلمع عبر الطريق .. كلما ظنته يختفى وجدته يظهر من جديد . لا تدرى كيف وصلت البيت ، فقد كانت شبه مخدّرة . صداع عنيف من أثر الرحلة وأزيز الطائرة وزحمة المطار وحرارة الجو . شربت زجاجة ماء معدنية . ارتمت على السرير مهـدودة الحيل . حين أفاقت أدركت أنها فقدت عـذريتها . أحست أنها شهيدة .. وحيدة . بدأت تدرك أنها فقدت كل شىء .. كل شىء بلا ثمن .. وبلا كلمـة عـزاء . بـيت فـقير الأثـاث ورجـل عـديم الإحساس ، يبحث فيها عن جسد وتبحث فيه عن روح . بدأت تعانى من الغربة نحو المكان والزمان والإنسان . الغربـة إحساس

غامض ينمو .. وينمو حتى يصبح أشجار شوك .. !!

وصلت من الأب الحبيب رسالة على غير انتظار ، منحتها قدراً من العزاء والأمل . ستواصل الرحلة إكراماً لذكرى أب فقير ، لا بد أن تتحمل . غدا سوف ينصلح الحال وتعود إلى الأهل والأمل . كل شيء فى البداية صعب .

ما بين مدّ وجذر باتت حائرة تتلوى ، اكتشفت — مصادفة وهى ترتب بعض الأوراق — أنه ليس مهندسا ولا خريج هندسة ، إنه مجرد عامل فنى يحمل شهادة تدريب مهنى . من يسرق البيضة يسرق الدجاجة . بدأت تشك فى أقواله وأفعاله . نما الشك وترعرع مثل نبات الذرة . كانت تخاله ذئبا أحيانا . لم لا يزوره أحد .. ولا يزور هو أحداً ؟ أمر مريب وعجيب أن يعيش إنسان وحيدا فى صحراء الغربة . لا فائدة من التفكير أو الندم . وقعت الواقعة .. لمن تشكو .. وإلى من تذهب .. لا تدرى ؟! إذا أرسلت رسالة لأبيها من يضمن أنه لن يفتحها ، ويقرأ كلمات شكّها وحزنها .. قد لا تصل الرسالة إلى الأب ، لكن المعنى سيصل إلى النذل فيقهرها أكثر . فى الليل تنشطر روحها ، وهى ترى الأصابع الغجرية تمزّق ثوبها وتنهش لحمها . عذاب .. اغتصاب .. اغتراب . فى الغربة يتجرع

المرء الهم ، ويعيش على وهم أنه إنسان مقهور . القهر ما يفعله الإنسان بنفسه ، حين يلبس ثوبا لم يُصنع له ، رغم أنه قد يباع بالدولار .. !!

« الغزال الشارد » هكذا وصفنى حازم ، حين توطدت علاقة الزمالة بيننا بعض الشيء ، ونحن فى السنة الثالثة بكلية الإعلام . كنت جبانة بدرجة لا أحسد عليها . فقدت أمى وأنا فى العاشرة . أبى فقير وإخوتى كلهم ذكور . كان البيت مثل الفندق للنوم والأكل . كل فرد يعيش حياته وحده ، ويعزف على قيثارته الخاصة . أبى — كان الله فى عونه — يشقى كثيرا من أجلنا ، هدَّحيله العمل المستمر . البيت دون أم صالحة — تجمع شمله — قبر موحش . اعتدت الصمت مع إخوتى ... والخوف على أبى ، ظن كثير من زملائى وزميلاتى أن الصمت والخوف نوع من الكبرياء . أشقانى كبريائى المزعوم ، وقف حائلا دون ممارسة الحب أو حتى الصداقة . أتمزق من الداخل ، والسطح هادئ وديع . أغرانى .. بهذه « الشيزوفرينيا » رضا أبى وإخوتى ، وأنى لا أسبب لهم أىّ نوع من المتاعب أو القلق . ولت أيام الصبا ، وضاعت ليالى الشباب دون

لمسة حنان أو لحظة عطف . ليت أيام الشباب تعود ، ليتنى ما رفضت ..

ــ أنت فتاة متكبرة أو مغرورة على الأقل .

ــ لم كل هذا يا حازم ؟

ــ تعرفين جيدا أننا زملاء ، وأننى أقدرك ، وأريد ...

ــ هذا سابق لأوانه .

أخذت المسافات تتسع والجروح تزيد . شيء ما يخيفها بالليل فلا تنام . ثورتها أشد من أمواج الخليج ، تصيح : يا خليج الغرباء ، خذنى إلى رملك وأمواجك .. طهرنى من الخوف والحزن . الصوت يضيع ويرجع الصدى .. صدى نشيج امرأة بيعت بالدولار .. !!

لم يكن له أصدقاء ، فهو خشن الطباع ، سيئ الظن بالناس . زارهما أثناء الأزمة زميل له مع زوجته ، هما الوحيدان اللذان رأتهما يدخلان بيت المنفى . جاءت الفرصة ولن تضيعها ، لا بد أن تشكو . تداخلت الأحاديث حول قسوة الصراع بين الغرباء ، وأسعار الدولار وارتفاع قيمة الجمارك ، وأخبار أسواق الملابس ، وأى محلات « السوبر ماركت » تبيع المأكولات الطازجة . أحست

أنهم تحولوا ــ فى الغربة ــ إلى هياكل من رمل وأسمنت ، لا أحد يسمع أحدا . كله على كله .. ولا حاجة فى حاجة .. ليمونة على الشجر مركونة .. !!

الليسانس المجمد سوف يفتح الباب المسدود ، لكنه رفض بحجة أن الشهادات ليست لها قيمة اليوم (أنت الذى تقول هذا يـا غبى .. !!) ، المرأة هنا لا مكان لها .. ثم لماذا تعمل المرأة وزوجها لم يقصّر ؟ (صحيح لقد مات من يستحون .. يا ابن الـ .. !!) كادت ترفع صوتها وتسبّه وتسب أمه وأباه ، تذكرت أنه لا يكاد يكلمها عن أهله . أبوه مات وهو صغير ، أمه ــ كما يرى ــ خائنة ، تزوجت قبل أن تتعفّن جثة الراحـل . إخوتـه لأمـه لا يعرفهم .. ولا يحاول .. !! صورة كريهة لكائن ممسوخ عديم الأصل فاسد التربية .

ــ لم تقل لى ما راتبك ، وماذا تصنع به ؟

ــ ما شأنك أنت بهذا ؟

ــ زوجتك .

ــ حتى لو كنتِ أمى .

ــ حقوق الزوجة أكبر من حقوق الأم ، كما يبدو أنك لا تعلم أنى حامل .

تحسس شاربه وابتسم فى غرور ، ثم أخذ يدق يده اليسرى على صدره : زوجك رجل يا مدام . !!

ــ الكلاب أيضا تنجب ..

انقلب الحمار الغبى إلى وحش هائج . ضربها ضرباً .. وهى تجرى .. تستغيث .. تحتمى بأى شيء ، ربما وصلت الاستغاثة إلى شط الخليج ، لكنها غرقت هناك وسط الأمواج . سالت الدموع أنهارا ، اختلطت الدموع بدماء تنزف من الشفة السفلى . باتت ليلتها على بلاط المطبخ . الليل كالغول ، طال وامتد .. وصوت النشيج يعلو . تركها ومضى مثل التيس إلى السرير . تمنت أن تموت .. ليس سوى الانتحار يرحمها مما هى فيه . استعاذت بالله ، ولم تدر ماذا حدث ، حتى أيقظتها رطوبة الجو الخانق .

تماسكت كى تبدّل ثيابها وتعالج جروحها . أفزعها ما صارت إليه من ضعف وهزال . ليست هذه فاطمة .. التى قالت لها زميلتها ذات يوم :

ـــ ما أسعد من يتزوجك . !!

ـــ لم يا أمانى ؟

ـــ جسمك غزال ، وجهك جذّاب ، شعرك ذيل حصان ، قمر يا حبيبتى ، قمر أربع عشرة .. !!

ـــ لا تبالغى .. أنت تنظرين إلىّ بعين الرضى .. !!

فى الجامعة لفت نظرى الزملاء والزميلات ـــ الذين أتعامل معهم ـــ إلى أننى فتاة جميلة ، رغم أنى لا أضع أى مكياج . حمدت الله على أن جمالى جمال طبيعى ، لكنى لم أحاول عمل أى مكياج ، بسبب الفقر ، واعتقادى أن الفتاة ليس من حقها أن تتجمّل إلا بعد الزواج . ! هذا هو الثور الذى صُنت جمالى من أجله ، ليتنى ما رفضت حازما .. ليتنى ليتنى .. !!

سقط من نظرها .. ومن حسابها . لم تعد تطيق النظر إليه أو الحديث معه . خلعته من حياتها كما يُخلع الحذاء البالى . شكت ذلّها وقلة حيلتها إلى الله ، ودعت أن يغفر لأبيها وأخيها على ما فرطا فى حقها . كانت تقوم بواجب الخادم وتأبى وظيفة الزوجة . هيىء له أنها متكبرة متعالية . الضرب أفضل علاج للمرأة الناشز . كان يتعلل بأية

حجة ، لكى يشتمها ويلعن أهلها ، الذين لم يحسنوا تربيتها . استسلمتْ وسلَّمت . بعض الهم أهون من بعض . الاحتقار يكبر فى رأسها بأسرع مما يزيد الحمل فى بطنها . تمنت أن تعانده فى أمر ما .. حتى يضربها من جديد ، وتتخفف من عبء حمل ، حملته كرهاً على كُره سبعة أشهر . لم تعد هناك فائدة ولا عائدة . استسلم الجسد المرهق لحياة العبيد . كانت تفرغ دموعها وتجتر أحزانها أثناء غيابه ، حتى لا يشمت فيها . شماتة العذّال قاتلة ، وهى قتيل شبع قتلا فى الروح والجسد . دعوة المظلوم مستجابة .. وهى فى السر والعلن تشكو وتدعو . ظنت السماء لن تستجيب .. لكنها لم تيأس . !!

مرت الأيام بطيئة .. متثاقلة . فى يوم من أول الشهر الثامن للحمل جاءتها فرحة مباغتة .. مثل فرحة السجين ، حين يبشّر بإفراج غير متوقع ، بعد سجن منفرد . اقترح عليها أن تسافر لتضع المولود بين أهلها فى أرض الوطن ، تمنت أن تقبلّ يده ، لكن الكبرياء منعها . رحبت بالفكرة وأخذت تزينها له . لم تدر سرّ الكرم المفاجىء الذى حلّ عليه ، حين أخبرها أنه سوف يصحبها لتختار بعض الهدايا لأسرتها ، عاودها شىء من الرضا والسكينة . أحست أنها تجاهلته بقدر ما ظلمها . الوليد الجديد حين يأتى الله سوف يغير شأنه

ويصلح حاله ، لأن الأبوة عاطفة تُلين قلب الصخر . فى المطار سلمها جواز السفر وتذكرة الطائرة وخمس مائة دولار ، أحس أبوها بنشوة غامرة ، وهو يمسك الدولارات لأول مرة : الدولار معجزة القرن العشرين يا فاطمة . !!

فرحت بالأهل وفرحوا بها .. وتقاسموا الهدايا وبعض الدولارات . زادت الفرحة عندما رزقت مولودة جميلة أسموها « ندى » تخليداً لذكرى المرحومة أمهم . أحس الأب بقدر من الحزن حين تذكر الغالية والحياة القاسية بعد ها.

ضاعت لحظات السعادة كما تذوب قطرة ماء عذبة فى خليج مالح . مضى شهر .. شهران .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة . لم يأتها خطاب .. أو رد على خطاب . عاودتها أحزانها القديمة المتجددة . تذكرت اسم الزميل الذى كان يزورهما مع زوجته . بعد شهرين كاملين جاءها الرد . لا أحد يدرى عنه شيئا بعد سفرها . أخذ كل مستحقاته ورحل .. إلى أين .. لا يعلم أحد.. البعض يظن أنه سافر إلى ليبيا ، والبعض يقول إنه هاجر إلى إيطاليا . النذل هرب مثل الخفاش فى الظلام . تلك هى الحقيقة الوحيدة المؤكدة . رضيت بالنذل ، لكن

النذل لم يرض .. لماذا قبلت هذا الزواج الملعون ؟ أراد الأب أن يتخلص من همّ فجاءه همّان . بدأت تدرك أنه يتحاشى مواجهتها . أحس — بعد أن وقعت الفأس على الرأس — أنه أذنب فى حقها . كل الإخوة رحلوا وتركوا البيت .. ولم يبق إلا هو .. وهى وحيدَيْن ، إلا من حسرة لا تموت ، وغصة فى الحلق لا تخرج ، ولا تدخل !!

نحن الآن وجهاً لوجه يا أبى .. هل ألومك أم ألوم نفسى أم ألوم الأيام السوداء ؟ سامحك الله يا أبى ، مهما كنت عزيزاً علىّ لا أستطيع أن أعفيك من المسئولية . الأبناء حِمل .. وأمانة . لكن ثقل الحمل جعلك تفرّط فى شرف الأمانة . أعلم أنك تحبنى ربما أكثر من إخوتى . لا أنسى أنك دللتنى كثيرا بعد وفاة المرحومة . لو كانت أمى حية ما حدثت هذه المصيبة . الفقر يا أبى قتل فيك الحكمة وبُعد النظر . قضيتَ علىّ .. وعلى هذه الطفلة البريئة .. وربما على نفسك .. من يدرى ؟! ما فعلته ليس خطأً وإنما خطيئة .. !! من يرض بأى شىء يا أبى يخسر كل شىء .. كل شىء . يا معددة نوحى :

ليه يا بيض العمايم   تعملوا فينا كدا
ترمونا رمى البهايم   وتشمتوا فينا العدا

(دائرة اللهب)

اعتادت الليل والذل واعتادا عليها . الأب يعيش معها جسداً بلا روح . لا يدرى ماذا يصنع من أجلها . ظنَّ أنه استراح وأدى واجبه .. وها هى الأيام السوداء تهزأ بشيبه ، وتسخر من فعله . بكى .. وندم .. ولم يعد يطيق البيت . كان يخشى أن يلتقى بها ، وهو المسئول عما حدث ويحدث . إخوتها ــ الذين اقتسموا الهدايا والدولارات ــ الآن تناسوها أو كادوا . الحياة صعبة .. لكل منهم بيته وعالمه . لم يكن أحدهم قادرا على المواجهة .. حتى كلمات العزاء ، أحسوا أنها فقدت المعنى . صارت وحيدة .. بعيدة عن الحياة والأهل ، وأصبحت مثل دودة القز ، تنسج شرنقة الأحزان ، وتبحث عن طريق للخلاص .

لا شك أنها ورثت الطيبة عن أسرتها ، فما زال أبوها وإخوتها يغزونها بالأمل المستحيل ، تحملت سنتين ، وما زالوا يطلبون منها الصبر . أدركت أن أهلها لن يساعدوها .. لم لا تحاول هى . ؟! بعد طول تردد ذهبت ــ سراً ــ إلى محام :

ــ القانون يا مدام لا يحمى الأغبياء ، على كل .. من حقك طلب الطلاق ، لكن ليس لك حقوق المطلقة .

ـــ وضح ما تقول .

أخرج كتابا وأخذ ينظر من خلف نظارة سميكة : المادة رقم ١٢ من القانون ٢٥ الصادر سنة ١٩٢٩ ، تنص على أنه إذا غاب الزوج سنة فأكثر بلا عذر شرعى ، وتضررت الزوجة من ذلك ، يجوز لها طلب التطليق بائنا ، حتى لو كان له مال تستطيع الإنفاق منه .

تنهدت كأنما تسترد روحها : إذن القانون فى صفى .

ـــ لكن ليس لك حق فى المؤخر والنفقة ، لأنك لا تعرفين له عنوانا .

نظر إلى وجهها الشاحب ، واستمع إلى صوتها الهامس : لا أريد شيئا لى أو لا بنتى ، سوف أبحث عن عمل . ما أريده هو أن أسترد حريتى وإنسانيتى .

ـــ معك حق .

ـــ لكن .. (ابتلعت ريقها فى مرارة) كم تتكلف القضية ؟

ـــ ألف جنيه يا عزيزتى .. أو ما يوازى خمسمائة دولار .

عادت إلى البيت ، وقد اسودت الدنيا فى عينيها أكثر .. لو وافقها أهلها على رفع القضية ، فمن أين لهم ألف جنيه .. أو خمسمائة دولار .

هدّها الأرق والقلق . لا تدرى كم مضى عليها ، وهى على هذه الحالة الحزينة من تلك الليلة المشئومة . تعبت من التفكير . أغمضت عينيها تحلم بموت هادئ ، يريح الأعضاء المفككة والأطراف المتنازعة .. !![1]

---

(١) الدوحة — ٣ / ١٠ / ١٩٨٧ م

ليلة الفأر

أسند ظهره المشروخ إلى الجدار الخشن . الظلام يزحف رويدا .. رويدا على صحراء مدينة نصر ، ثمة أضواء مرتعشة تتسلل خلسة من بعض البنايات الجديدة . البنايات تبدو فى النهار واضحة ، تحجب صحراء العباسية الشرقية . عندما يأتى المساء ، ينتشر الظلام .. يبتلع كل شىء : البنايات .. الصحراء .. الأضواء ، حتى أنت .. تضيع فى الصحراء .. حبة رمل غريبة .. تائهة .. وحيدة .. خائفة .. فى الظلام .. !! كوب ماء .. كوب ماء ينسيه الأوجاع . لو كان فى داره لنادى أم العيال .. لكن أين أسيوط قبلى .. من العباسيَّة بحرى . المسافة بين أسيوط والقاهرة مسافة كبيرة .. مثل المسافة بين الأمل والواقع . البنت مريم حبيبة أبيها .. بنت مبروكة أطلقت عليها هذا الاسم قابلة مسيحية .. « ستقر عيناك بمريم .. سوف تكون مباركة باسم السيدة العذارء »

ــ هات القلة من الشباك يا ريم .

ماتت الحروف القلقة فى الحلق الظمأن . أين إبراهيم من ابنته .. وأسرته .. وزوجته عائشة ؟ هذا موعد عشاء الأولاد . أولاد .. يا أولاد .. يا أولاد الحلال والحرام .. يا أولاد الـ .. من الذى حكم علىّ بكل هذا العذاب والاغتراب ؟!

أحس أن لم يعد فيه عضو قادر على الحركة سوى عينيْن غائرتيْن ، تجوبان الصحراء الظلماء الخرساء . أكل العيش مّر .. والمرارة هى ما يعانيه الآن ، بعيداً عن الأهل والأحباب . هذه آخر ليلة من رمضان الكريم .. غداً يوم العيد ، أول عيد يقضيه بعيداً عن الأولاد . السمك حين يخرج من الماء يموت ، البذور لا تنمو إلا فى تربتها ، الطيور لا تطير إلا فى الفضاء .. لكى ابن آدم .. مثل الحرباء ، يعيش فى أى بلاد ومع أىّ ناس . يا ناس .. يا عالم .. الليلة عيد .. وأنا .. أنا .. أنا وحيد .. يا ليلة العيد ... !!

أخذ يتأمل السماء مظلمة ، والنجوم غائبة ، والصحراء ممتدة . ليلة العيد أمسى الكون صحراء ظلماء . فى هذه الليلة كانت أم العيال تعدّ له الجلباب الصوفى وعمامة كبيرة كأنها عمامة أبى زيد الهلالى . ولا تنسى أن تنظف البلغة بالماء والصابون . حين يعود من صلاة العيد

يعطى يده للأولاد ، فيقبّلونها داعين له بطول العمر ، وينطلقون بعد أن يأخذوا العيديّة ، أما هو فيخرج بزىّ المناسبات ، لكى يمّر على البيوت التى فقدت أحد سكانها ، وبعد قضاء حق الموتى يجىء حق الأحياء :

أيقظته من تأملاته حركة خفيفة لا يدرى مصدرها . الصوت الضعيف شرخ جدار الصمت حواليْه . تأمل — فى ظلام يألفه — منظر البناية التى يحرسها ، حولها طوب .. زلط .. رمل .. خشب .. حديد .. خرطوم أسود طويل ، يمتدّ .. يتلوّى ، كأنه ثعبان ، لا يدرى إن كان قد رأى هذه الأشياء .. أم لا ؟ فهو يعرف مكان كل شىء هنا .. حتى حبّات الرمل يعرف مداها . أثناء النهار تكون الحركة صاخبة ، والكل يعملون .. يغنّون .. يشربون الشاى .. يدخنون السجائر والجوزة .

العمال مضى بهم لُورى كبير إلى المدينة . لم يبق سواه . أحس العالم ضيقاً .. والكون خرابا . كل هذا كان ليلة عيد الفطر المبارك . تعجّب للحظة ، لم لا تراوده هذه الوساس أثناء النهار .. بل إنه يتذكر أنها لم تكد تمّر عليه بمثل هذه القسوة من قبل ؟! طلب من الريّس

حمدان المقاول إجازة ، حتى يقضى العيد مع الأولاد .. لكنه رفض ، وضاعف له اليومية .. وخمسة جنيهات عيدية من الرجل الطيّب ، صاحب العمارة الكبيرة ، ذات الأدوار العشرة وكل دور أربع شقق . انتابته الحيرة عندما عرف أن صاحب العمارة لن يسكن فيها هو ، أو أىّ من أبنائه ..

ـ صاحب العمارة ساكن فى الزمالك .

ـ إذن لم يتعب نفسه فى بناء لا يسْكنه . ؟!

ـ مشروع تجارى يا غشيم .

كيف يكون غشيماً ، وهو يعرف كيف وأين وضعت كل طوبة وكل سيخ حديد ؟ حاول أن يتخيل منظر الرجل الطيب صاحب العمارة ـ الذى لم يزرها حتى الآن . احتار أكثر حين علم أنها للتمليك ، وليستْ للإيجار . تعجب .. كيف تغيّرت الدنيا ؟ الناس هناك فى قرى مركز صدفا محافظة أسيوط قبلى ، من يملك داراً أو دواراً فإنه يقيم فيه إلى الأبد .. وهذا الرجل الطيبّ يبنى عمارة كاملة ، ولا يسكن فيها .. عجيبة !!

عادتْ الحركة الهامسة إلى الظهور مرة أخرى . صوت أى شىء

يكون هذا ؟ .. صوت الريح .. صوت الظلام .. صوت الخوف ؟! منظر الخرطوم .. زاده خوفاً وريبة . ما زال الصوت يدنو .. ويدنو .. أرهف السمع .. لم يعد يرى .. أو يسمع شيئا . استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، غير أن القلق ظل ينمو .. وينمو داخله . عندما جاء إلى هنا منذ سنة ونصف ، كان مجرد خفير للحراسة . شيئا فشيئا صار يعمل الشاى .. ويعدّ الجوزة .. ويبيع السجائر ، وإذا غاب واحد من العمال حل محلّه . كله مكسب .. والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود . البنت مريم كبرت ، صارت عروسة ، ولد أخيه يريد أن يتزوجها قبل أن يُجنّد . تخيّل مريم عروسة ، وهو يرقص بالعصا أمام موكب زفافها . كل شىء من أجل العيال ، الذين جاءوا فى عصر عمارات التمليك والبيع بالتقسيط .

حين تذكّر عرس مريم حاول أن يعرف ما معه من نقود . إن ما يأتيه من قروش يظل يدخرها حتى تصبح جنيها . إذا صارت القروش جنيها ، يستقرّ فى حرزٌ أمين .. فى شال عمامته ، وقد وضعه فى جريدة قديمة إمعاناً فى التموية ، ثم وضع كل هذا فى صرّة وسط ملابسه ، تحت طاولة خشبية صنعها لينام عليها ، هذه الطاولة

لا تغيب عن عينِهِ ليل نهار . لم لا يعد النقود حتى يعرف ماذا جمع .. وماذا حصد ؟! أراد أن يهمّ ، لكن عافيته لم تسعفه . أحس أنه عود أذرة جاف . لتكن الجنيهات ما تكون . فهل تساوى العظام التى فُرّغت ، والمفاصل التى فُككت ، والآلام التى حُصلّت ، والأسرة التى بُعثرت .؟!!

تمنّى أن يصرخ ، وأن يصل صراخه إلى محافظة أسيوط قبلى .. أسيوط يا بلدنا لقد كُنّافيك رجالا فلم أمسْينا فى القاهرة أقزاماً .. !؟ يسد وجه الكون أمامه جدار من الظلام .. وهو ضائع وسط الرمل والطوب والأسمنت والخرطوم الأسود : تخيّل صاحب العمارة — الرجل الغنى — الرجل الكبير ، ينهره قائلا :

— إياك أن تنام يا .. !!

استمرأ تخيّلاته فتصوّر الرجل الطيب عمارة متحركة ، تبتلع كل ما أمامها بالحق أو بالباطل .. فالبوابة كبيرة .. وكل شىء بالتقسيط المريح . أيقظه من خيالاته الساخرة ، ذلك الصوت المريب . اللهم اخزك يا شيطان . عاودته آلام عود الحطب ، حين تحرقه نيران الغربة والوحشة ، والوسواس الخنّاس ، الذى يوسوس فى صدور الناس .

أمسى الحارس فى حاجة إلى من يحرسه .!! الصوت بدأ يتضح .. ويظهر . لا فائدة من التشاغل أو التخيل ، صار الوهم حقيقة . شىء ما يزاحمه ظلام الوحدة . أرهف السمع ، دقق النظر .. أمر مريب غريب . إبراهيم الرجل الجدع أمسى خائفاً فى ليل الفقراء !! تمنّى لو طار إلى أم إلعيال .. أو جاءت هى إليه فى المقر البعيد !! اشتعل الصوت ومات الصمت . ليست هذه أولى ليالى الوحدة . ماذا جرى لك يارجل ؟ ارتعش فجأة فقد بدأ يستبين حقيقة الموقف . لم تكن الوساوس وهما ، إنْ هى إلا فأر لعين ، جاء يعكّر عليه صفو ليلة العيد . أى عيد هذا .. بل أى نحس ؟ الفقراء الغرباء لا عيد لهم ، فلم جئت يا عيد !؟

انكشف المستور وظهر المختفى ، الفأر يتحرك أمامه فى ثقة وتحد . شك فى أنه ما زال إبراهيم بشحمه ولحمه . مُلِىء القلب المتصدّع رُعباً ، يا ألله .. ماذا حدث ؟ اقترب الفأر أكثر ، كأنما يتحدّاه . أيها النائمون .. أسألكم — بحق السماء والأرض ، والملائكة والشياطين — هل يقتل الفأر رجلاً ؟!

تداخلت فى الدماغ المتعب آلام شتّى !! . تصور النجع ..

العيال .. الريس حمدان .. صاحب العمارة .. الفأر . إبراهيم الذى كان يقتل الذئب أمسى يخشى مواجهة فأر !! الولد جودة ابنه قال ذات مرة ، إن مدرس العلوم ذكر لهم أن الفئران قد ملأت بر مصر ــ التى كانت محروسة . هذا النوع من الفئران يُسمى « الفأر النرويجى » ، وهو كثير التوالد ، لدرجة أن فأرا وفأرة يلدان مائة فأر فى السنة الواحدة . لا يزال الفأر واقفا أمامه . حاول أن يفعل شيئا ، لا فائدة .. مات فيه شخص إبراهيم القوى .. وبقى شبح إبراهيم المبتلى . أيها الفأر النرويجى اللئيم ما الذى جاء بك إلى هنا ؟! بلاد النرويج هذه أكيد بلاد كفار أشرار .. فلم بعثوا فأرهم إلى ديار المسلمين الأبرار ؟! حاول فكره المحدود أن يتصوّر أين تقع بلاد النرويج فى ملك الله الواسع العريض ؟ فى راديو الترانزستور يسمع إعلانا غريب اللكنة عن « الفراريج الدنيماركية المذبوحة على الطريقة الإسلامية » . تساءل مرة أخرى ، والفأر ما زال يقف ثابتاً أمامه : أليس ثمة علاقة بين الفأر النرويجى والفرّوج الدينماركى ؟!!

أحسّ أنه يهرب بخواطره القلقة ، لأنه لا يدرى .. لا يدرى كيف يتصرّف مع الفأر .. الفأر العنيد فى ليلة العيد !! أمسى عاجزاً

عن الحركة ، وكاد يعجز عن التفكير . هذا الفأر بلا ريْب مخلوق من مخلوقات الله .. فلم لا يستعين بالخالق على المخلوق .؟! اللهم نجّنى من الفأر ومكره .. يا ألله .. يا مالك المُلْك .. لم نكن قادرين على الفأر المحلّى ، فلم ابتليتنا بالفأر النرويجى . ؟!

تذكر أم العيال .. ورزق العيال . ماذا لو تسلل الفأر اللعين ووصل إلى النقود وقرضها ؟ الفأر حيوان ذكىّ ، يقـرض كل شيء .. ويتخلّص بمهارة من الأزمات . اختلطت فى الرأس المتعب ملامح صاحب العمارة الذى لا يعرفه . بهيئة الفأر الذى لا يكاد يتبيّنه . إبراهيم الذى كان يلعب بالعصا فى الأفراح والموالد . أمسى أضعف من فأر .. وأغبى من حمار . نقل بصره المحيّريْن الفأر والصحراء . تضاءل داخل ذاته ، بينما الفأر يتطاول ويتطاول إلى أن سدّ هبوب الريح وجذور الضوء من الجهات الأربع .

استعاد مرة أخرى صورة ابنته مريم ، عسى أن تبعث فى روحه المغتربة بعض العزم ، لعن اليوم الذى ترك فيه بلده .. وهجر ولده . ضال .. من يدّعى أن الناس تموت من الجوع ، الناس تموت ذلاً .. وخوفاً .. وقهرا . راودتهَ فكرة أن يستعيذ بالله مرة أخرى ، لكنه

سرعان ما أدرك أن الدعاء ــ وحده ــ لا يكفى لقتل الفأر .. وإنقاذ رزق العيال . بدأ يستعيد قدراً من الثقة الضائعة . أخذ يستجمع .. قواه .. الممزقة ، لا أمل فى شيء إلا بأن يعمل شيئا . الفأر لن يموت إلا بقدر من المكيدة وقسط من القوة . ليته أحضر مصيدة فئران .. لكن هذا الفأر أكبر من أى مصيدة . هذه ليلة عيد .. وليلة فأر .. !! أخذ يسحب يده اليمنى بخفه حتى أمسك بحجر . ثبت الحجر فى يده بقوة وصبر . بدت اللحظات قاسية ، وهو يمد يده بطيئاً بطيئاً . حاول أن يصوّب جيداً . قذف بالحجر مرة واحدة ، فأحدث شرخا فى جدار ليل الخوف . سريعاً سريعاً فر الفأر ناحية الطاولة ، واختفى فى العش الذى يوجد فيه متاعه . تضاعفت أوجاعه .. لكنه أصرّ على أن يفعل شيئا ما .. شيئا ما .. ما .. م ..[1] .

---

(١) الدوحة ــ قطر ــ ٥ يونيو ١٩٨٦ .

ــ نشرت فى مجلة « أخبار الأسبوع » قطر ــ فبراير ١٩٨٧ .

ــ مجلة « إبداع » القاهرة ــ مارس ١٩٨٩

الضرب تحت الحزام

(دائرة اللهب)

تأمل فى صمت أسرته ، تتداخل فى بعضها بحثا عن لحظة دفء وأمان . هذه زوجته المسكينة .. وهؤلاء أبناؤه السبعة ، قد تاهت ملامحهم ، وجفت أعوادهم من الجوع والخوف . خمسة أعوام مرت ونيران الحرب لا تتوقف . صيدا عروس الجنوب اللبنانى صارت مأوى للذئاب والثعالب . الأسرة نائمة .. وهو وحده ، قائم فى الليل . اعتصم منذ مدة بكوخ بائس ، بناه فوق ربوة عالية ، ليكون بعيدا عن الخطر . لا يترك الأسرة وحدها ولا يتحرك دونها . إما أن يحيوا جميعا .. أو يموتوا جميعا . لم يعد هناك أمل . يدخل الليل فى النهار .. والنهار فى الليل ، وهو مقيم أبدا فى الكوخ ، لا يغادره إلا لضرورة . تأمل بصره الأعشى أسرته المعذبة ، فاشتعل الفكر خوفا واحترق القلب حزنا . لم يعد من السهل أن يميز بين كبير وصغير أو ولد وبنت . ضاعت العافية وفقد المهنة . كان بائعا متجولا ، يشترى الملابس وأدوات الزينة من أسواق بيروت ثم يبيعها فى قرى الجنوب

يومها كانت الدنيا روضة وأسرته سعيدة وامرأته جميلة ، أما هو فكان رجلا ذائع الصيت ، يعرفه معظم سكان صيدا وصور ومغدوشة .
إيه .. دنيا . !!

انتقض فجأة ليتأكد مرة ثالثة أن الباب مغلق .. مغلق جيدا . حفّارو القبور يأتون من كل فج وفى أية لحظة . إذا خامرهم شك .. أبادوا المكان بمن فيه !! . وضع بعض ما وجد خلف الباب ، حتى يذهب عن نفسه الخوف ، وقع إناء نحاسى فأحدث صوتا مفاجئا . هبت الزوجة مذعورة : أولادى .. أولادى . العفاريت لا ينامون ولا يتركون غيرهم .. خرب الله بيتهم ، خرب الله بيتهم ، كما خربوا بيوتنا .

— اطمئنى يا أم عرفان .. أنا زوجك .

أخذت تستعيذ برب الفلق من شرّ ما خلق ، وتردد اسم الله الكريم ، وهى تغطى أجساد أفراخها بخرق من الخيش . بعد مدة قالت دون أن تنظر إليه : لماذا لم تنم .. يا زلمة ؟!

تربّع فى مكانه غير ملتفت إليها . ما أحلى النوم فى ليلة باردة من ليالى تشرين . الخوف من المجهول يجعل الإنسان إنساناً مع إيقاف

التنفيذ . لا يدرى من هم أولئك الذين يصبّون عليهم ذلك العدوان الأثيم . عصابات شرسة وجماعات متنوعة اختلفوا فى أشياء كثيرة ، واتفقوا على أمر واحد ، هو تدمير الجنوب ووأد من فيه وما فيه . يا ألله .. يا مالك الملك : إنى لم أقتل نفسا ، ولم اغتصب عرضا ، ولم أسرق حقا ، فلم تصبّ على رأسى كل هذا العذاب . ؟ يا ألله .. يارب موسى وعيسى ومحمد وعلى بن أبى طالب ، لم لا تصرف عنّا كيْد الظالمين !؟

راودته بالأمس فكرة عاقلة أو مجنونة لا يدرى . المهم أنه نفذها . ذهب إلى جريدة « النهار » ، وقدم صيغة إعلان ، رفض الموظف نشره فى البداية ، لكنه أصرّ .

ـــ أنتم تعلنون لمن يدفع . هذه مائة ليرة .. ثمن كل ما استطعت أن أستغنى عنه من أثاث وملبس وأخشاب .

رد الموظف وعيناه مثبتة على الإعلان : أنت مقامر . !!

ـــ فى الظروف الصعبة تستوى المقامرة والمغامرة . على كل أنا أقامر بشىء أملكه .. !!

سلعة جديدة ـــ لا تجدها فى بلاد اليابان أو الأمريكان ـــ أب

يبيع أبناءه لأى مشتر فى العالم . دستور هيئة الأمم .. وميثاق حقوق الإنسان .. كلام .. كلام جميل .. وبليغ ، يشتدق به أصحاب الكرافتات الملونة فى صالونات الأدب والسياسة ، وهم يدخنون سيجار هافانا ، ويشربون النبيذ القبرصى . !! حمد الله فى سره مثنى وثلاث ورباع ، لأنه اهتدى إلى فكرة بيع الخمسة الكبار (عرفان ١٨ سنة ـــ عدنان ١٦ ـــ لميس ١٣ ـــ نجاة ٩ ـــ جميل ٦) ما يحيّره الآن هو : لماذا أحجم عن بيع الطفلين الصغيرين .. ولم لا يقدر على أن يبلغ زوجته بالقرار . ؟! لكن لمَ يتعجل وقع المصيبة قبل أن تأتى ؟ يكفى ما هى .. وهم جميعا فيه !! لا يدرى منذ متى لم يغيّر ملابسه .. ولم يتناول طعاما ، ولم يشعل حطبا ؟ تمنى كوباً من الحليب الساخن من يدّ أم عرفان . !!

حاول أن يسكت خواطره ، ويتأمل الواقع البائس لكوخ يعيش فيه . منذ سنتين حرقت الحرب داره فى صيدا ، فجاء إلى هذه الرابية العالية وبنى الكوخ ، حتى يكون بعيدا عن الفلسطينيين فى مغدوشة واللبنانيين فى صيدا . لم يعد قادرا على معرفة من هم المقصودون بالقتل والإبادة .. ولا من هم القتلة والجناة .؟! بعد أن كانت له دار

آمنة وحياة طيبة ، أمسى ينام على أوراق الشجر ويتغطّى بالخيش ، ويتغذّى على الخوف والجوع والبرد . فكرة البيع ما تزال جاثمة على قلبه الممزّق . كيف سولت له النفس ذلك ؟ كنوز قارون لا تساوى ظفر ولد فى نظر والده . لم فعلت هذا يا .. ؟! حاول أن يتذكر اسمه فلم يقدر . شيء عجيب أن ينسى رجل الاسم الذى ينادى به منذ تسع وأربعين سنة . !! عاود النظر إلى العش .. ومن فيه ، لكنه لم ير ... ولم يسمع . أغمض عينيه وحاول أن ينام وهو جالس ، حتى تدفىء الأعضاء بعضها بعضا .. !!

انتقض بعد لحظة على أصوات تهزّ جدار الكون . هل هذه حقيقة أم وهـم ؟! شرخ صمت الليـل الصوت والصدى... بـــووم بوووووم .. طيـخ .. طيييـيخ .. طـاخ .. طـاااااخ .. بـووم بوووووم .. طاخ .. طاااااخ .. طاااا .. بووم . الليل الغـول ، أفضل موعد للبغى والغدر . فكر فى أسرته . هل يوقظهم أم يتركهم نائمين ؟ لقد اعتادوا النوم على أصوات المدافع والقنابل . أن يأتى الطوفان فجأة أفضل من أن ينتظروه وهم خائفون . تحيّر .. ماذا يفعل وهو أعزل ــ خائف ــ جائـع ، هـل يخرج أم يبقـى ؟!

يا ألله .. أعوذ بك من خوف لا ينفع ، وعجز لا يشفع . !!!

بحثاً عن الموت أو الخلاص قرر أن يخرج من دائرة الخوف . شلاّل من البرد القارص لفح جسده النحيل عندما خرج . أغلق الباب في هدوء . تماسك حتى لا تهزه الريح . أسند ظهره للكوخ . حاول — بصعوبة — أن يتبيّن من مكانه على الرابية مصدر الصوت . رأى على بُعد قريب أو قرب بعيد عربات .. دبابات .. مدافع .. جنودا .. نيرانا مشتعلة .. ناحية المخيمات في مغدوشة . شل ظلامَ الليل صبحٌ من اللهب . هُيّىء له أن لبنان كلها تحترق . من الذى أضرم النيران فى ربوع لبنان ؟ أصوات المدافع والقنابل تصيح وتزمجر . ألسنة اللهب تصل ما بين السماء والأرض . تهاوت أمام عينيه أشجار الأرز العتيقة واشتعلت فيها النيران . القتلة مضوا فى قوة وثبات يدمّرون الضياع ويقتلون الجياع . قابيل لم لا تموت .. لم لا تموت أبداً ؟!

استجمع قواه المبعثرة وضرب الهواء بعصاه ، ليطرد أشباحاً يراها رأى العين . تناسى لسعة برد ، تهب عليه من كل اتجاه . أخذ يضرب .. ويضرب ، لكن الأشباح ظلت تعيث فى الأرض فسادا ، وتشعل الأفق نارا . جاء الطوفان .. لا أمان .. يا لبنان . تمنّى أن تمتد

شظايا النيران لتحرق العالم كله . عليّ وعلى أعدائى يا رب !! القتلة ما زالوا يرمون القذائف الطائشة فى كل اتجاه . من يقتل من .. ولماذا .. وكيف .. كيف تكون الحرب بكل هذه الوحشية والجنون ؟! من يجيز قتل العزل وموت الجياع ؟ كيف تكون الحرب بلا شرف أو ضمير ؟! هذا زمان الغدر الهمجى ، والقتل البربرى . تخيل السيد المسيح يصلب من جديد . !!

سكت صوت البارود لحظة ، فتوقف يلتقط أنفاسه . النيران ما تزال مشتعلة . من هو نيرون الجديد الذى يضحك الآن ؟! غداً سوف يأتى من يشترى أبناءه ، سوف يبيعهم لأول طالب .. من أى بلد ومن أية ملة . بعدها يعيش أو يموت هو وزوجته لا يهم . يكفى أنه سوف ينقذ أبناءه . أحس بقدر من الحسرة لأنه لم يعرض الطفلين الصغيرين للبيع أيضا . لكن من يشترى قطعة لحم فى حاجة إلى تنشئة وتربية ؟ .

تأمل الأفق وقد غطته سحابة من الدخان . النيران ما تزال مشتعلة غير أن صوت المدافع والقذائف قد توقف . حمد الله فى سرّه ،

وبدأ يهم عائدا إلى الداخل . أخذ يتحرك ببطء وحذر . فى ذات اللحظة التى حاول فيها أن يمسك الباب ، سقطت عليه وعلى العش قذيفة طائشة ، فتناثرت الأجزاء ، وتفرقت الأشلاء ... ولا تزال النيران مشتعلة ...[١]

(١) الدوحة — ٢٨ نوفمبر ١٩٨٦ .
— نشرت فى جريدة « الراية » — قطر — ١٠ يناير ١٩٨٧
— مجلة « النهضة » — الكويت — مايو ١٩٨٩ .

أوراق العشب

تأملها من قرب بعيد .. أو بُعد قريب .. لا يعرف . المهم أنه صار فى حالة تأمل . نظر إليها مرات ومرات .. يا سبحان الله . حملق وبحلق . نظر وانبهر . اتسعت حدقتا العين بدرجة أحس فيها أنه ليس سوى عينين . تناسى كل من حوله ، ولم يعد يفكر إلا فيها . انتابته حالة وجد صوفى ، وهامت روحه حول زمان الوصل . لا .. لا يا رجل ليست هى ، وإن كانت هى إياها فما الذى جاء بها إلى هنا .. ؟! كل شىء جائز يا عزيزى فى هذا الزمن المستباح . عاود النظر وواصل البصر .. الشعر هو نفس الشعر الفاحم الناعم .. حتى الخصلة التى لا تستقر على جبهتها الخمرية .. ما زالت حائرة وسط .. وسط ماذا ؟! وسط جبين أشم .. مصقول . هاتان العينان الناعستان أليستا عينيها يا رجل ؟! وهذا القرط ، هو الذى أهديته إياها فى عيد ميلادها العشرين . إذا كنت قد نسيت كل هذه التفاصيل — يا رجل — فلن تنسى رقة الشفتين .. وما قالت لك .. وما قلت لها فى أيام الحبّ

الذى كان .. !! ثم هذا القدّ الضامر : أليس هو جسدها ، الذى أرهقته الأيام .. وأرهقته صاحبته .. ثم جئت أنت الآخر ، وزدت اللهيب جمرا ؟ هذه فرصة لا تعوض حتى تكفر عما ارتكبت من أخطاء .. وعما .. !!

كان الأتوبيس مزدحما .. لكنه لم يشعر بوجود أحد فيه غيرها . ليتها تنظر إليه .. لو نظرت فسوف تتذكر . لا شك أنها نظرت .. وتغافلت .!! لكن لماذا تتغافل . ؟! لا .. لن أترك هذه الصدفة تذهب .. ولن أترك المحبوبة تفلت . أحس مرارة فى الحلق حين ذكر كلمة « المحبوبة » . أية محبوبة .. وأى حب .. هذا الذى يبعث فجأة .. وقد ضاع أو ضُيّع من قبل ، لغير ما سبب مفهوم .... !!؟ توقف السائق فجأة ، فاهتز الأتوبيس بكل من يحمل .. وأمسك الجالسون والواقفون بأقرب شىء ، يمكن الاستناد عليه . لكنه لم يستطع أن يمسك بشىء .. فاهتز كما يهتز المجذوب فى حلقة ذكر . صاح راكب من بعيد فى جار له :

ــ التدخين ممنوع فى الأماكن العامة يا سيد .

فرد شخص آخر غير مدخن :

ـــ الأماكن العامة ـــ مثل القطاع العام ـــ ليست ملكا لأحد ، ومن حق أى واحد ، أن يفعل فيها ما يشاء . !!

صاح الكمسارى :

ـــ ادفعوا ثمن التذاكر أوْلاً .. ثم تفلسفوا كما تريدون !!

كادت تنسيه عملية المراقبة حالته الخاصة .. حالة الوجد والوجع . ابتلع ريقه حين أبصرها من جديد تائهة وسط الزحام ـــ داخل الأتوبيس . الوقت ليس نهارا أو ليلا .. وليس صيفا أو شتاء .. لكنه بين بين ، إنه وقت الأصيل فى أواخر سبتمبر . كذلك هو أيضا ضائع فى الما بَيْن بَيْن .. فلا هو مع الماضى أو مع الحاضر .. ولا هو مع المحبوبة أو بعيد عنها . !! لقد تركها مختارا .. فلم يريد العودة ؟! حبك القديم هو حبك الجديد .. فلم لا تُرجع ما فات ؟ . يا رجل ما فات مات ، لا .. لا تموت ذكرى جميلة فى خاطر إنسان حى . لولا الفقر .. لو بيدى .. !! أنا .. السبب .. أنا السبب . وراء كل قصة حب فاشلة محب جبان .. !!

أخذ يرقبها من بعيد .. لا يعرف لم خشى أن يقترب منها ؟! وقف فى مكانه متحفزا ، كى ينزل معها . فى الوقت الذى تنزل فيه هى من

الأمام ، سوف ينزل هو من الخلف ، ويلتقيان كأنما اللقاء صدفة . حين تلتقى عيناها بعينيه لن تستطيع الإنكار . قد تعتب قليلا .. أو كثيرا ، لكن قلبها الكبير سوف يعفو ويصفح . الهمّ إذا باتت عليه ليلة صار رمادا ، لكن همنا مضت عليه ثلاث سنوات كاملة . كل شيء فى هذا الزمان يمكن إصلاحه .. لا شك أنها ندمت كما ندم .. ولم يعجبها أحد ، كما لم تعجبه غيرها . المرأة فى بلادنا مشكلة مستعصية .. لكنها فى النهاية ذات قلب أبيض .!!

بينما هو غارق فى المابين ، أوقف السائق الأتوبيس بجوار الرصيف ، وصاح من مجلسه دون أن يتحرك :

ـ الأتوبيس به عطل .. المستعجل يأخذ مواصلة أخرى .. أو ينتظر الأتوبيس القادم . !!

خَرج .. أو أُخرج من سماء الأرواح إلى جحيم الأشباح . سرت بين الركاب .. همهمات .. واعتراضات . تجمعوا حائرين .. بائرين . أخذوا يبدون الاحتجاج ، بعد أن نزلوا من السيارة ، تداخلت العبارات .. والاحتجاجات .. وعلت أصوات الرفض .. والاستنكار :

— سائق مهمل .. لماذا لم يتأكد من سلامة السيارة قبل أن يسير بها .. ؟!

— لو كانت هناك مراقبة ما حدث هذا .

— لقد فعلها هذا الرجل أكثر من مرة .. حتى يريح نفسه ..

— سائق قطاع عام !!

— يجب أن نقدم شكوى إلى مجلس إدارة الشركة .

— لو ضربناه علقة ساخنة ما فعلها مرة أخرى .

— ولو .. ولو .. هأوّ .. هأوّ .. !!

بدا مثل الأطرش فى الزفة . لا يدرى من يتكلم ومن يسمع ، كلام .. كلام .. لا فائدة . بدأ ينزل درجات السلم ، وهو يحس أنه يهوى من علٍ . شدته — إلى فترة — قضية الأتوبيس المعطل ، غير أنه ظل مجذوبا إلى فتاته ، التى كادت تغيب عن عينيه . سرعان ما مدّ ناظريه عبر الرصيف الممتد . أحس غصة تقف فى حلقه حين افتقدها لحظة . عاودته نشوة أمل حين لمحها من بعد قريب .. أو قرب بعيد ، تسير ناحية شارع جانبى ، همّ فى سيره .. وأوسع خطواته . تناسى مأساة الأتوبيس المعطل . لم يشغل نفسه

بالأتوبيس ؟! هناك كثيرون .. وهو واثق أنهم لن يفعلوا شيئا سوى الصياح .. والثرثرة . لا فائدة فسائق الأتوبيس يجلس — الآن — وحده سعيداً .. وربما راودته سنة من النوم اللذيذ . سوف يتفرقون بعد قليل .. واحداً .. واحدا .. « وأنا مالى .. !! » .

أسرع .. وأسرع حتى يلحق بها . كاد الحلم يصير حقيقة . تأملها من خلف — عن بعد قريب .. أو قرب بعيد .. !! إنها هى .. هى « سعدية » أو « سوسو » كما كان يدللها . عجيب .. وغريب أن تمر تلك السنوات كلها ، وما زالت على ما هى عليه : رشاقة قدّ واستقامة عود . لم تزد عن الليالى الخوالى بوصة واحدة فى الحجم أو الطول . يدعون أن الدنيا تتغير .. !! كيف تتغير .. وسعدية ما زالت على حالها ، وأنا العبد لله الفقير — صابر عبد الصبور — ما زلت أيضا كما أنا ، موظف قطاع عام ، بشهادة — نسيت اسمها — ليس لى مكتب أو كرسى أو عمل محدد ، لكننى أذهب يوميا ، لأن لى اسماً فى كشف المرتبات ، أوقع وأستلم خمسة وأربعين جنيها . قال رئيس الأرشيف .. إنها سوف تصبح مائة وعشرة جنيهات بعد عشرين سنة .. لهذا هربت منى سعدية . من

أخطأ فينا .. ومن أصاب .. ؟ ومن الذى أضاع هذه السنوات الثلاث من عمرنا ؟ لست أدرى .. !! لكننى مصر على إنهاء مرحلة القطيعة .. !! لام نفسه على ما قصر فى حقها . سعدية يا حبيبتى : ما بأيدينا خُلقنا فقراء .. !! طلبت منه أن يرحل إلى بلاد البترول ، أو أن يترك العمل الحكومى فرفض بإصرار ، بحجة الالتزام برعاية أمه . سعدية كانت على حق ، حين رفضت أن تربط مصيرها بإنسان حالم ، يملك قلبا فياضا بالحب ، لكنه عاجز .. لا يملك إرادة ، ولا يجرؤ على مغامرة . ذهبت .. ولم تعد ، كما ذهبت أشياء .. وضاعت أخرى . !!

انتحرت فى فؤاده أشواق الحب ، واستيقظت آلام الفقر . لكن المرء ـــ بالتعود ـــ ينسى أشياء كثيرة .. بل ربما ينسى سر وجوده .. !!

خيل له أن لقاء اليوم حمام بارد ، أيقظه من أحلام فارس قديم . تأملها من بعيد خشية أن تضيع منه ـــ مرة أخرى ـــ فى الزحام . أبصرها واقفة تتحدث مع صديقة لها . فى الزمن السعيد القديم كان يعرف كل صديقاتها .. حتى معارفها ، لكنه اليوم صار غريبا عنها .

لا يعرف أى شيء . إنه الزمن . يقف الآن مثل سور الصين بينه وبينها
ماذا يفعل الزمن فى البشر ؟ الزمن .. جسر نتعجل عبوره .. كى
تُقتل البراءة .. وتُشل الإرادة .. وتنتحر البسمة . ليس اليوم الآتى
بأفضل من اليوم الماضى ، لأن كل يوم يمر ، ينقلك خطوة من ربيع
الغضب إلى خريف العبث . !!

هُيئ له أنه يرى الشارع لأول مرة . الزحام شديد .. والظلام
يزحف رويدا رويدا على المدينة . أول مرة يحس وقع الزمن . تحسس
وجهه المتجهم ، وفتش فى أعماقه عن كلمات يقولها . ماذا ينوى أن
يقول . ؟! لا يدرى . يكفى أن يراها . حين تصافح كفها كفه ،
سوف تعود إليه الروح من جديد . وهو الآن على استعداد لأن يفعل
أى شيء من أجلها . حياة بلا حب .. جسد بلا روح ، وزمن بغير
معنى . الحب دستور الحياة .. ومن لا يحب ولا يُحب عاجز عن أن
يكتب حرفا فى دفتر الوجود ، بل إن الحب هو الوجود ذاته ، أنا
أحب .. إذن أنا موجود . هذه فلسفة صابر منذ اليوم . إذا لم تحب
الوطن .. والحياة .. والعمل .. والأهل .. فلن تضحى من أجل ما
توحى به كل تلك القيم النبيلة . أحس أنه فقد كثيرا منذ غابت عنه .

لولا عبلة ما ضحى عنترة من أجل القبيلة .. ولولا التضحية ما استطاع أن ينتزع حريته من الطغاة . أحس روح عنترة تحتويه ، سوف يحاول منذ اليوم .. !! الحب ليس كلمة .. وإنما فعل وإرادة . !!

بينما هو غارق فى تأملاته يستلهم روح عنترة ، بدرتْ منه التفاتة إلى حيث كانت .. !! عجيب .. عجيب .. ما هذا ؟ كأنما انشقت الأرض وابتلعتها . أسرع عدوا نحو المكان ، الذى أبصرها فيه آخر مرة . لف .. ودار .. ونظر .. وحملق .. تأمل اليمين واليسار .. والأمام والخلف . لا فائدة .. لا شك أنها لم تبعد كثيرا عن المكان . لكن أين ذهبت على وجه التحديد ؟! لا فائدة من لعل .. وعسى . إنه يريدها هى بذاتها .. !! مستحيل أن يتركها تضيع ، حتى لا يضيع هو مرة ثانية . كل ثانية تمر تشعل الشوق جمرات فى دمه . تحرك يا صابر .. اجر يا رجل .. !! لم تكن تهمه نظرات الفضوليين من حوله أو تعليقاتهم .

أمر واحد يريده . أول مرة يرغب فى أن يكون مريدا .. صاحب إرادة . لام نفسه التى اعتادت الشطحات الخيالية . أخذ يجرى فى

الميدان ، ويرقب كل اتجاه .. ظل يجرى .. ويرقب . لا فائدة . عرق بارد يتصبب من كل خلايا جسده . تجمعت قطرات العرق البارد ، وبدأت تصب فى فمه الجاف . بدا طعمها غريبا .. يجمع بين المرارة والملوحة .... !!

أخرج منديله .. وحاول أن يجفف عرقه . أسند جسده المرهق قرب عامود إضاءة . أخذ يرى نفسه فى الضوء .. تأمل أعضاءه المفككة .. وثيابة المهملة .. وذراعيه فى قميص نصف كم ، وقد غطتهما لزوجة باردة . أحس أنه يكاد .. يرى نفسه عاريا ، لأول مرة .. !! لم يعد يجدى التعلل بالأمل .. أو التعلق بالحلم . سعدية .. اختف فجأة .. كما ظهرت فجأة ، تلك هى الحقيقة المرة يا صابر . أيها الحائر دوما .. أما آن لك أن تفيق !! نظر من حيث هو واقف ، فرأى الأتوبيس يتحرك .. كأنه على وشك السير . اتجه ناحيته ، يسير على مهل .. فهو واثق أن السائق الكسول لا يعرف للزمن قيمة . الأتوبيس انطلق فجأة مثل فرس جامح . أخذ يعدو خلفه .. ولكن بلا فائدة .

كادت تخنق أنفاسه سحابة الدخان التى خلفها الأتوبيس وراءه . شيئا .. فشـ .. فشيئا بدأت الأضواء تتكشف أمام ناظريه . أصر على أن يبدأ مسيرة البحث عن سعدية بعد أن أشرقت فى ضميره شمس المحبة .[١] ..!

(١) الدوحة إبريل ١٩٨٨ .
ــ نشرت فى مجلة « أخبار الأسبوع » ــ قطر ــ أغسطس ١٩٨٨ .
ــ .. مجلة .« المنتدى » ــ دبى ــ ديسمبر ١٩٩٠

الفهـرس

صفحة

مؤلفات طه وادى الأدبية

		طبعة أولى	طبعة ثانية
١ ـــ عمار يا مصر	(مجموعة)	١٩٨٠	١٩٩١
٢ ـــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢	١٩٩١
٣ ـــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤	١٩٩١
٤ ـــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥	١٩٩١
٥ ـــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧	١٩٩١
٦ ـــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠	١٩٩١
٧ ـــ الليالى	(سيرة ذاتية)	١٩٩١	١٩٩١

* * *

رقم الإيداع ٧١١٨ / ١٩٩١
الترقيم الدولى 5 - 0694 - 11 - 977